قبو العباسيين

قبو العباسيين : رواية .

د . هيفاء بيطار .

تنضيد : ندى سليمان .

إخراج : هفاف ميهوب .

الطبعة الثانية / ٢٠٠٦/ .

الناشر : دار السوسن للطباعة والنشر .

ص . ب ٩٠٦٣ دمشق .

تليفاكس : ٦٦٦٥٦٩٦ - ٦٦١٩٣٣٤- ٩٠٤٤٥٥/ ٠٩٢

ALSAWSAN @ MAIL.SY

جميع الحقوق محفوظة .

توزيع : دار الحصاد - دمشق

تيلفاكس : ٢١٢٦٣٢٦

رواية

د. هيفاء بيطار

www.akhawia.net

يمكنكم زيارة موقعنا

WWW. DARALSAWSAN. COM

للاطلاع على إصداراتنا ومعرفة المزيد حول الكتاب والكتاب

الموقع بإشراف NET4SY لتوفير حلول الأعمال الإلكترونية وأنظمة عمل الشركات وخدمات الحجز والاستضافة والبرمجة
WWW.NET4SY. COM

● الوقت وقت القيلولة، والمكان قاعة المحاضرات في كلية الآداب قسم الأدب الإنكليزي، والأستاذ يُحاضر بحماسة عن أدب . د. اتش لورانس، وبين وقت وآخر يرفع نظارته ليمسح بمنديل قماشي أبيض عرقه الخفيف الذي يولّده دفء نيسان.

القاعة تغصُّ بالطلاب، يتسارعون في كتابة ما يقوله الأستاذ لكأنهم يدخلون في سباق، وهي في مقعدها الأثير دوماً في آخر المدرّج تراقب المشهد أمامها، الأستاذ، ظهور الطلاب ورؤوسهم وحركات أيديهم..

كان ارتخاء هو مزيج من النعاس والإعياء يجعلها تحسّ جسدها رخواً ملتصقاً بالمقعد. وارتخى جفناها كأنهما يرغبان في النوم، كانت يسراها تخربش على الورقة الأخيرة في الدفتر، وترسم دوائر وخطوطاً متشابكة، (وبروفيل) وجوه دون عيون.. توقفت عن الخربشة وأخذت نفساً عميقاً وهي تحوّل عينيها إلى النافذة العريضة، ليعبر نظرها الباحة الكبيرة للجامعة التي تنتهي بالمقصف.

وطرح ذهنها الخامل، مثل جسدها في جلسته التي تبدو أبدية، تساؤلاً بدا لها عميقاً مغروزاً في ذاتها، ولم تعرف كيف أفلت صريحاً كأنه فار من سجنٍ سحيق: ماذا أفعل بهذا الجسد الشبق اللين الطري؟. ونيسان يولّد الحياة والخصب، وتمطّت وهي تحسّ بأنوثتها تتلوّى في جسدها مُثقلة متخمة بالشوق، ثمرة ناضجة

www.akhawia.net

جاهزة للقطاف تكاد تسقُطُ من ثقلها، آه. . . رائحة الأنوثة قوية وفـوّاحة كرائحة القرنفل من يتنشّقها ويتنسّمها، القرنفلة البرية، مرهقة بأريجها. تستغيث، تستنجد، بعابر سبيل يتنشّقها بعمق. تلامس أصابعه أوراقها، يهزّها، يقطفها، يعتصر أوراقها، يُشبع أنوثتها، تُرى أليس هناك من يعشق رائحة القرنفل؟!.

أتكون قيلولة نيسان بما تتركه من خدرٍ لذيذ في جسدها مسؤولة عن طرح هذا السؤال بهذه العفوية الجريئة الصادقة؟ أم أن هذا السؤال اختمر طويلاً في أعماقها. ربما تعود جذوره إلى سنوات طفولتها. وابتسمت وهي تستعيد الحلم نفسه، رجل الأحلام الذي سيحتضنها ودوماً تتخيل جذعه عارياً أسمر، قوياً وعضلاته مشدودة، ودوماً يرتاح وجهها على صدره، وبشرة خدها الناعمة تلامس صدره الدافىء المكسو بأشعار سوداء ناعمة، وتحس بنار تحرق أحشاءها. تتحول إلى جمرات مشتعلة تأخذ شكل نصف قوس أسفل بطنها، إنها الرغبة، تلك الكلمة الأبدية المقاومة للفناء، التي لا تموت أبداً، تقاوم الأسلحة والرصاص والقنابل، تقاوم أخطر سلاح الكلمات.

لوحة أبدية ترتاح عندها، لا كلمة، لا نظرة، لا همسة، لا وجه ولا تفاصيل، فقط خدٌ نضر أبيض - خدها- يلامس الجذع الأسمر العاري، ومن مساحة التماس تشتعل الرغبة، وتفرّغ كل أشواقها الدفينة، وتبوح بأنين سنوات وجوع تحمّلته بصبرٍ.

ابتسمت وهي تلمح قطاً وقطة في باحة الجامعة يتعاركان ويتحابان ويموءان، وعاد السؤال يطرح نفسه بثقة أكبر، ماذا سأفعل بهذا الجسد المشبع بالأنوثة، المثقل بالشوق، المختنق

بالكبت، والرغبة والشهوة والغريزة والجنس، الكلمات المُصادرة الممنوعة المرعبة، أليست هي نفسها المشاعر الخالدة المقاومة للفناء ماذا سأفعل بها؟ وهي تلح وأنا أتجاهل. لم أعد أحتمل. . . آه، أريد أن أتلاشى، قالت هذه الجملة بإعياء وهي تغمض عينيها متعبة من إرهاق مشاعرها، كانت تحس جسدها مهدوداً رغم أنها لم تبذل جهداً يُـذكر، وتخيلت نفسها تقف عند شاطىء البحر، وهواء نيسان عند العصر يداعبها، ويطيرُ فستانها الحريري الأزرق، ويعلو ليتحول لقطعةٍ من السماء، وتطير حمّالة نهديها الرقيقة، ويسقط سروالها الحريري أو الحديدي المقفول بقفل، مفتاحه ليس في حوزتها أبداً، وتصير عارية، فراشة حرة، أو قطة تموء تمارس الحب بحرية في الهواء الطلق، وتغزو خيالها الخامل كلمات نزار قباني في ديوانه (يوميات امرأة لا مبالية) أحب كتاب إلى قلبها، ويتحول نهداها لحمامتي الحرية، ويخلق خيالها الجذع الأسمر العاري الدافىء، ويخلق له ذراعين قويتين تعتصرانها وشفتين تلتحمان بشفتيها، ويسقطهما خيالها على الرمل الناعم عند الحد الفاصل بين الماء والرمل، وتنعش جسداهما برودة ماء البحر، الذي يدغدغهما أبداً في مده وانحساره. . .

لم تعرف كم استغرقت من الوقت في اندماجها بذلك الحلم الرقيق، لكنها فتحت عينيها مجفلة، وقد علا صوت الأستاذ فجأة، وكأنها وعتْ لتوها آين هي، وأن الأستاذ يتكلم منذ أكثر من ساعة عن أدب د. اتش لورانس، وهي لا تعي كلمة مما يقوله وأحستْ بشفقة عليه، وتأملته مستطلعة كأنها تراه للمرة الأولى مع آنه يدرسها منذ سنتين، وتساءلت أي نوع من الرجال هو؟ تُرى

www.akhawia.net

كيف علاقته مع زوجته؟ وضحكت بعبثٍ وهي تتخيله يضاجع زوجته، وتساءلت: هل يستطيع الجدّيون أن يعيشوا مشاعر جنسية عفوية؟ وهذا الأستاذ القصير الأسمر ذو الكرش، الحائز على الدكتوراه في النقد الأدبي، ما شكل علاقته مع زوجته؟ وحين سيغادر قاعة المحاضرات ويعود إلى بيته. ويتناول غذاءه، ويرتمي في الفراش قرب زوجته، هل سينام أم سيغازلها؟ ترى هل يحن إليها فيما هو يتحدث عن أدب د. اتش لورانس؟ وصور لها خيالها أنه سيتناول غذاءه وسينام، لأن جسد الزوجة لا يُغري زوجاً متعباً أبداً، وسيؤجل غريزته إلى وقت لاحق، إلى أي وقت آخر. فهي حاضرة، جاهزة، مشروعة، وضع عليها المجتمع ختم المسموحات، صدرتْ ورقة رسمية تبيح لها ممارسة الجنس بأي وقت مع زوجها. الورقة الرسمية أهم من الإنسان، أهم شيء على الإطلاق.

تململ الطلاب في مقاعدهم، وأمكنها أن تستوعب جملة وحيدة أخيرة قالها الأستاذ، فيقطع تصورها إياه في فراشه الزوجي إذاً الدرس القادم سنحلل رواية (العذراء والغجري) لديفيد لورانس عليكم بشرائها.

فرغت قاعة المحاضرات. كانت لاتزال لاطئة على المقعد مرهقة بجوع أنوثتها الذي ألحّ عليها بقسوة في هذا اليوم النيساني الرائع، ووجدت نفسها تعاود البحث عن القط والقطة، لذا اختفيا، حسدتهما على حريتهما، وهمس عقلها، لكنهما حيوانان، وردّت باستهتار ليكن، إنهما لايعانيان من الكبت والضغوط والحرمان والتقاليد. وضحكت وهي تهمهم إن الانسان

هو الحيوان الوحيد الذي يحتاج لعلم النفس والطب النفسي، وأن هذين القطين لايمكن أن يصابا أبداً بعصاب أو اكتئاب، ولا هستيريا ولافصام، ولا أي مرض إنساني نفسي، وهما يتمتعان بتلك الحرية الرائعة التي يمارسانها غير مبالين وعلى مرأى من الملأ جميعاً.

أخذ جوع خفيف يدغدغ معدتها، قامت أخيراً ومشت كالمخدّرة. ونزلت درجات المدرج العريضة الواطئة، كانت الساعة تقترب من الرابعة، لم تكن راغبة في شيء، لا في العودة إلى المنزل ولا في الجلوس في المقصف مع شلة أصدقائها المملّين لكنها تذكرت أن عليها آن تستعير المحاضرة التي ألقاها الأستاذ حين كان ذهنها يفتش عن جواب ملحّ لحل كبتها وشوقها للجنس الاخر، وحين كان جسدها يئن بصوتٍ مكبوت خجول من جوع مزمن للجنس، وتلك الكلمة التي لاتجسر أن تلفظها علناً، بل تلف وتدور وتراوغ حولها أبداً كما علّموها ودرّبوها ودجّنوها.

اتّجهت إلى المقصف، وتأملت بازدراء الطلاب المتحلقين مجموعات مجموعات، يأكلون السندويش المسخّن ويشربون الشاي أو القهوة أو المشروبات الغازية، يضحكون ويتناقشون. وتساءلت بلهجة غاضبة: أتراهم لايشعرون. لا يرغبون أن يحطموا القيود، ويعيشوا الحية بأبعادها، ترى أية حرية وأية أبعاد تقصدها، مسكينة إنّ ذهنها متعب لدرجة لايقدر أن يفكر ويفهم ويحلل، تنبّهت لصوت زميلة لها تناديها:

- خلود، تعالي اشربي معنا الشاي.

www.akhawia.net

انقادت للصوت بآلية، وجلست مع شلة من الطالبات تجمعها بهن علاقة سطحية باردة. طلبت من شادية أن تعطيها المحاضرة لتنقل شيئاً مما فاتها فأعطتها شادية دفاترها عن طيب خاطر، وطلبت إليها ألا تتأخر به، ردّت: سأعيده غداً، سأصور المحاضرة، هل تظنين أنّي مستعدة أن أرهق يدي وأكتب ساعتين.

قالت شادية: «خاصة وأنت تكتبين بيدك اليسرى».

ردّت مستغربة: «وما علاقة كوني أكتب بيدي اليسرى، بالسرعة في الكتابة، أنا لاأحب أن أكتب أثناء المحاضرة، ولا أحب أن يلاحقني الأستاذ بكلامه دوماً.

حين أحضر النادل الشاي، أزاحت شادية كتبها جانباً لتترك فسحة لكؤوس الشاي، وحانت من خلود التفاتة إلى كتب شادية لترى رواية مصفرة مخلّعة سميكة عنوانها (السأم) لألبيرتو مورافيا، اختلجت مشاعرها وتناغمت مع سأم مورافيا، سألت شادية: «ماهذه الرواية المهلهلة»؟.

ردّت شادية ضاحكة: «إنها السأم لألبيرتو مورافيا، لقد سهرت حتى الفجر كي أنهيها، فهي مشوّقة للغاية.

سألتها: «هل أستعيرها أيضاً؟».

قدمتها شادية وهي تقول: «خذيها، سأرتاح من ثقلها».

سألتها: «أهي لك؟».

ردّت شادية ببساطة: «لا، إنها لفهمي».

ابتسمت خلود نصف ابتسامة: فهمي الشاب الأسمر الطويل الذي تحبه شادية، فهما متلازمان دوماً. أعجبها جواب شادية

العفوي والبريء، إنها لاتخفي أنها على علاقة حب، وتخيّلت القطين الحرين العاشقين، وتساءلت هل شادية وحبيبها يشبهانهما إلى حدٍ ما؟.

نظرت إلى وجهها متفحصة كأنها تراها للمرة الأولى، شادية وجه طفولي ملائكي، نقي، بشرة بيضاء وردية، عينان خضراوان صغيرتان براقتان، فم مكتنز جميل، أنف دقيق، جسد نحيل متناسق أميل للقصر، شعر أشقر طويل، إنها تعرفها منذ سنتين، تتبادل وإياها أحاديث عادية سطحية، تستعير محاضرات الأساتذة دوماً منها، وتعرف أنها عاشقة، إنها تغبطها الآن على علاقتها الحرة، على الحب الذي لاتحسّه هي إلا في الخيال.

* * *

أوقفت سيارة وقالت بصوتٍ بدا لها بعيداً منهكاً مريضاً: «أرجوك إلى المزة فيلات لو سمحت». كانت تراقب الطريق من خلال نظارتها الطبية الشمسية التي يصير زجاجها رمادياً عاتماً في الشمس، وتمنّت لو استطاعت أن تمشي وتستمتع بجمال الطبيعة والهواء النيساني النظيف المحمّل بروائح الأزهار والأشجار والخصب والأرض، لكن عراكها الذهني المضني أكثر من ثلاث ساعات طوال وقت المحاضرة، جعلها تحس أنها مهدودة القوى وأنها جمرة احترقت طويلاً وببطء.

كان السائق يقود بسرعة على الأوتستراد، أحبّتْ السرعة دوماً، فهي تحسّ أنها تفرّ من الماضي، الماضي الذي يلاحقها أبداً،

www.akhawia.net

أما من مفرٍ منه؟ . إنها تمقته، وتعتقد أحياناً كثيرة أنها محته أو نسيته، لكنه يفاجئها أبداً بصور تؤلمها كصفعةٍ مفاجئة، وباغتتها عاصفة بكاء غير متوقعة، وسقطت دموعها ساخنة غزيرة فوق رواية السأم المصفرّة العتيقة ورسمت الدموع صورة وجوه ثلاثة أمها، أبيها، خالتها أو أمها الثانية، وتتالى تساقط دموعها سلساً خافتاً غامراً الصفحة الأولى للرواية، كانت مُطرِقة تتأمل البقع التي تُحدثها دموعها على الصفحة العتيقة، وهي تحس كم هي ضعيفة، ولكم تشعر الآن بالذل والانكسار من مشاعر الرغبة العنيفة التي اجتاحت جسدها وأنهكت أعصابها وقت المحاضرة، وفي أوقات كثيرة متباعدة وهي ساكنة لاتملك شيئاً تجاه شيطان الرغبة، وخشيت أن يلاحظ السائق دموعها. فحاولت -بإرادتها- كبح دموعها كما اعتادت أن تكبح مشاعر كثيرة وتسجنها وتخنقها . . . صار منظر الورقة الأولى التي تحمل اسم السأم يثير الشفقة، لكن الوجوه الثلاثة ظلّت تتراقص أمامها، وتتبدل المواقع مع كل دمعة تسقط ثقيلة . . . توقفت السيارة حيث أشارت للسائق في زاوية شارع فرعي هادىء. وسارت مغمضة العينين في الطريق الذي تحفظه جيداً، وقالت لنفسها وهي تصعد الدرج الرخامي وتتأمل أصص النباتات المختنقة في الظل على جانبي كل درجة: «هذا وقت ارتشاف القهوة. ستكون أمي وخالتي على الشرفة الغربية للمنزل، وأبي سيكون في مكتبه».

فتحت الباب ودخلت، كان المشهد كما تخيّلته تماماً كانت الأختان ترشفان القهوة على الشرفة الغربية، تستمتعان بعبق الأزهار الذي يحمله الهواء العليل، لم تشعرا بدخولها. اتّجهت

إلى المطبخ الأنيق، شمّت رائحة أكلتها المفضّلة (الملوخية) ولم تشعر برغبة في الطعام رغم أن معدتها كانت تتقلص بخجل طالبة حقها في الطعام، لكنها لم تستجب لتوسلها، وفاجأها صوت خالتها تقول: «رجعت ياحبيبتي هل أسخّن لكِ الغداء؟» . . . ردّت باقتضاب غير راغبة في الحديث: «لا» . . . . .

«لِمَ لا ياحبيبتي؟!!» . . . .

ردّت بنزق ودلال: «أوه ياخالتي أريد أن أنام فأنا متعبة جداً».

اتّجهت إلى غرفتها، رمت كتبها على الأريكة، نزعت قميصها وبنطال الجينز الانكليزي، ولمحت صورتها في المرآة الطويلة المؤطرة بخشب الزان، ورغم عاصفة البكاء التي باغتتها، ومشاعر الإعياء التي تلبس جسدها، فإنها ابتسمت لصورتها الفاتنة التي تعكسها المرآة، اندسّت في الفراش وهزمها النوم الذي أحسّته نهاية لاحتضار رغبتها التي اشتعلت لساعات ثم تهادت فانطفأت!!.

وفي مكان غير بعيد من أوتستراد المزة فيلات، كانت صفحة صفراء مبللة بالدموع، ارتسمت عليها وجوه ثلاثة، تحكي قصة خلود. . . وهاهو الماضي يعيش، ويقوم من الموت، متمطّياً فوق الصفحة الصفراء لرواية السأم، وعاد الماضي ساخناً سخونة دموعها، حياً أبداً، يفرد سطوته على الحاضر والمستقبل، وعلا صوتٌ تحبه، بل تعشقه، صوت أمها تصرخ: «الحيوان، الحيوان».

وانتفضتْ من سريرها طفلة صغيرة في الثامنة من عمرها، ولوهلة اعتقدت أنها أفاقت مجفلة من حلم مزعج، لكنها نظرت

www.akhawia.net

إلى السرير الآخر. لم يكن أخوها فيه، كان الغطاء مشعثاً، وهاهو الصوت الحبيب يعلو ويعلو وتسمع كلمات مرعبة: الحيوان الكلب، القذر. جمّدها الذعر في فراشها، وارتعشت شفتاها تؤذنان بالبكاء، لكنها تمكّنت أن تغادر فراشها تفتح الباب لترى مشهداً انطبع عميقاً في خلايا دماغها، أمها في وضع مزرٍ، شعرها مشعث، تصرخ كحيوان مذبوح، تتقاذف الشتائم من فمها الذي لم تسمعه ينطق إلا بأرق الكلمات، وقد مزّقت قميص نومها، وأخذت تشد شعرها وتصرخ، الحيوان.. أخوها الذي يكبرها بتسع سنوات يحاول تهدئتها، وخالتها تحضّر لها كوب ماء تفوح منه رائحة ماء الزهر، وتقرب الكوب من فم أمها، فتمسك أمها الكوب، وترميه بكل قوتها ليصطدم بالجدار، ويتحطم شظايا، كما تحطّمت كرامتها وتشظّت مشاعرها، وتنطلق صرخة رعب من فمها وتقول: «ماما... ماما».

عرفوا أنها استيقظت، وأنها تحضر المشهد، وأنها مسمرة حافية عند باب الحقيقة، وأنها فتحت عينيها على واقع مر ماكان لها أن تعرفه.

واستمر الصراخ: الحيون، القذر...

ورأت أخاها يتجه إلى الهاتف ويتكلم، وخالتها تحاول تهدئة أمها الي كان صوتها يرتجف من الغضب والألم، وتساءلت: أين والدها، وصرخت بصوتٍ عال: بابا بابا، ما كان من أمها إلا أن انطلقت صوبها كمن مسّها جنون، وأمسكتها من كتفيها وأخذت تهزها وتقول لها: البابا ليس بابا، إنه حيوان، حيوان، أتفهمين، البابا حيوان، لقد تركنا وتزوج!!!

الكلب، العاهر!!!

أخذت تصرخ وتبكي، وتمكّن أخوها من إبعادها عنها، وأدخل الصغيرة إلى الغرفة وقال لها بحزم: ابقِ هنا. لكنها أخذت تبكي بدورها وتستغيث: لاتتركني وحدي، فصورة أمها تمزقها وتخيفها، وتتمنّى لو ترتمي في حضنها وتقول لها: ارجعي ماما كما أعرفها، لماذا تؤذين نفسك وتمزقين مشاعري الطفولية، عودي ماما الحلوة الهادئة التي تغني بصوتٍ دافىء رائع أغاني فيروز الرقيقة الحالمة. عودي ماما التي أرتمي بين ذراعيها، فتغمرني بقبلتها العذبة، ولكن أمها تزأر كحيوان جريح. وهرعت إلى الصالون مخترقة باب الحقيقة. فتحت الباب مخالفة توصيات أخيها لترى الطبيب يغرز أبرة دقيقة في وريد أمها، ويحقنها دواء جعلها تغمض عينيها في الحال... وبقايا دموع لزجة تلصق أجفانها المحمرّة. هرعت إليها وارتمت في حضنها، وأخذت تضمها وتبكي: «ماما، ماما»، وأمها لاتجيب ولا تتحرك، بل تتثاءب بعمق، وأمكن لها أن تلاحظ خدوشاً سطحية وعميقة في وجهها، وآثار دم عند زاوية فمها، من أثر الضرب الذي هيّجه جرحها وغضبها في يديها، فجعلها تضرب نفسها...

لم تنم تلك الليلة، ولم تذهب لأيام إلى المدرسة، يبدو أن الكل قد نسيها، لكن أين البابا؟ كان عقل الطفلة الصغيرة يتساءل بخوف أين البابا؟ويظل السؤال حبيساً في داخلها، ولماذا صار اسمه الحيوان، والاما الجميلة الهادئة لماذا هي مريضة ونائمة أغلب الوقت؟ صارت تخشى أن تنام وحدها في السرير، أخذتها خالتها -أمها الثانية- إلى غرفتها لتنام إلى جوارها، ولا تغفو إلا ويداها

www.akhawia.net

تمسكان يد خالتها أو قميص نومها، ويقولون الماما مريضة وستشفى بعد أيام، لكن الماما اختفت فجأة ذات صباح، بكت طويلاً لاختفائها، قالوا إنها سافرت، الجواب واحد من خالتها وأخيها «الماما سافرت»!! كيف تسافر وتتركني؟! لماذا لم تودّعني؟! أهكذا تغادر خلسة؟ لماذا لم تأخذني معها؟ كسرتها الأيام، كسرت مشاعر طفلة في الثامنة فتحت باب الحقيقة باكراً. وتتابعت الأيام وعادت إلى المدرسة فاقدة القدرة على الابتسام، وذات يوم كان والدها ينتظرها عند باب المدرسة، كان قد مضى خمسة أسابيع لم تره منذ اختفائه، لمحته من بعيد همّت أن تركض. وترمي بنفسها بين ذراعيه، لكنها تلكأت فاقترب منها واحتضنها، وأبقاها طويلاً بين ذارعيه يتشممها ويقبلها، ويقول لها بصوتٍ يقاوم الارتجاف: «لقد اشتقت إليك كثيراً، كثيراً، كثيراً»... وسألها: «ألم تشتاقي للبابا؟».

كانت تتأمله بعينين سوداوين واسعتين، بهدوء، ولامبالاة، على الرغم من أن انفعالات قوية متشابكة كانت تخضّ جسدها النحيل، ومن يومها تعوّدت تلك النظرة المكبوتة التي لاتفضح عمّا يعتمل في داخلها، ونجحت مع الزمن في إتقان تلك النظرة الجامدة المحايدة، التي تنجح تماماً في إخفاء باطنها، ومايعتمل فيه من عواصف، ومايتفجر فيه من براكين، كان قد أحضر معه كيساً ممتلئاً بالهدايا، أمسك يدها وقال تعالي: أعطيك الألعاب. سارت معه وعيناها تحدقان في الباص الذي يمتلىء شيئاً فشيئاً بالأطفال، كل طفل عنده بابا وماما وهي، توقفت لحظة، وأفلتت يد أبيها، وسألته بصوت يختلج بانفعالات طفولية غامضة: بابا، هل أنت حيوان؟!!.

التقت عيناهما لبرهة، أحست كيف تقلّص وجهه، لم يجبْ. غاص قلبه وأعطاها كيساً ملوناً منتفخاً بالألعاب والهدايا. قال لها: هذا لكِ، وقادها إلى الباص، ورفعها من تحت إبطيها لتدخل الباصَ. وأخذت تراقبه وهو يبتعد بعينين جامدتين سوداوين ساحرتين وقبل أن يصل سيارته، التفت إليها ولوّح لها بيده، ارتجف فمها، وابتلعت دموعها وهي تهمس مختنقة بابا، لاتذهب...

لكنه اختفى وغاب سنوات، ولم يعد اسمه البابا، صارت كلمة حيوان تطن بأذنها كلّما سمعت كلمة بابا...

المسجلة المزروعة في ذاكرة طفلة عمرها ثماني سنوات، تسجّل حوادث كبيرة صريحة، فبعد زمنٍ طويل طويل، عادت الماما من السفر، رأتها فجأة في البيت، لم تتوقع حضورها بهذا الشكل المفاجيء. فبعد أن كفّت عن طرح الأسئلة متى تعود الماما؟ وبعد أن نسيت الابتسام، وبعد أن اعتادت على حضن خالتها تلجأ إليه من قسوة مُبهمة لاتعرفها، هي قسوة الحياة، رجعت الماما ومعها هدايا كثيرة، ولكن في عينيها رماد كآبة وحزن، حزن أسود عميق لم تنجح ابتسامتها وأشواقها بإخفائه، رمت حقيبة المدرسة، ووقفت للحظات، وقلبها يتسرع من هول المفاجأة، لكن عينيها السوداوين العميقتين احتفظتا بذلك السر العجيب الذي يجعل طفلة تخفي مشاعرها وتكبتها، لقد ورثت عيني أمها السوداوين الواسعتين، وحين كانت أمها تفتح ذراعيها والدموع تفيض بصمت من عينيها و كانت هي تتأملها بحبٍ يخضّها من رأسها إلى أخمص قدميها، صرخت بصوتٍ متهدج: «ماما». وهرعت

www.akhawia.net

إليها، ولم تنفك عنها إلا بعد ساعات، كانت خائفة أن تفقدها ثانية فيما لو انفصلت عنها، وكانت أمها تبكي وتمسح على شعرها بحنان، وتخاطبها بكلمات عذبة رقيقة، ورددّت اسمها عشرات المرات. كل مرة بلون جديد، وإيقاع جديد، خلود، خلود، وبعد أن تناولوا الغداء الذي أعدّته خالتها، أصابتها حالة هياج وأخذت تصرخ: «لا، لن تذهبي ياماما». وأكّدوا لها جميعم أن الماما لن تسافر أبداً بعد اليوم...

ذاكرة الطفلة تسجّل سفر أخيها، بعد أشهر من رجوع أمها إلى البيت، سافر إلى لندن ليدرس الطب. تذكُر كيف وقفوا في المطار، متواجهين، هي وأمها وخالتها من جهة، ووالدها في الطرف المقابل، الماما والبابا لم يتبادلا الكلمات ولا النظرات. وهي كانت تسترق النظر لأبيها خلسة، حين ناداها، مشت إليه متعثرة فحملها وقبّلها، ولم تجرؤ أن تنظر إلى أمها وهي في أحضان والدها، وحين انحنى أخوها ليقبلها وهو دامع العينين يوصيها أن تسمع كلام البابا والماما وخالتها، وأن تكون شاطرة، أحسّت بانقباض، وتذكرت يوم تركتها أمها وسافرت. وظلّت تلاحق ابتعاد أخيها بعينين هادئتين عميقتين حتى توارى وسط الزحام.

خلا البيت من أبيها، من البابا الذي تزوج شابة حلوة صغيرة تصغره بعشرين عاماً، وحين كان يمر كل أسبوع لاصطحابها إلى بيته لتقضي عنده يوماً كاملاً، كان ينتظرها في سيارته فتتعمد أمها أن تؤخرها عن النزول. وكانت تراقب بعينين صامتتين أبداً غليان أمها وغضبها وهي تقول: «الحيوان يصحب عاهرته معه، وينتظر

في الشارع، تحت نافذتي، ماكانت تجرؤ أن تسأل ما معنى كلمة عاهرة. وكانت تتألم بصمت وهي ترى أمها متأذية محتدة، وتذعن لأوامرها وهي تأمرها بقسوة أحياناً أن تتباطأ وتترك والدها ينتظرها، كانت تنتظر باستسلام أوامر تلك المرأة التي تعبدها، حتى تأذن لها أن تنصرف، وحين كانت تستدير لتعبر الدرج، كانت تتوقف وهي تصغي لصوت أمها المرتجف يناديها خلود، فتلتفت لتلتقي أعين الأم والابنة المتماثلة في السواد والاتساع والحزن، وترتمي في حضن أمها التي تغرقها بقبلات نهمة كأنها تودعها لسفرٍ طويل وتقول لها وهي تغالب دموعها: لا تتأخري يا حبيبتي...

كانت تصعد في المقعد الخلفي لسيارة والدها، وتتأمل الصبية الحلوة زوجته، وتتخيل أمها مكانها، تعلمت الكره مبكراً، كانت تمقت زوجته، وتكرهها لأنها السبب في هذا الشرخ، وبدأ الحب والكره ينموان متجاورين، متنافسين في داخلها، إنها تحب أباها وتكرهه. لقد تركهم وسبَّب الألم الشديد لأمها، وأكثر ما كانت تتألم لأجله هو حين تناديها زوجة أبيها «حبيبتي»، كانت هذه الكلمة تلسعها فيزداد نفورها منها، وذات يوم طلبت إليها زوجة أبيها أن تناديها ماما، وحين أخبرت أمها بذلك عَرضاً، جن جنونها وسارعت إلى الهاتف، وسمعت صراخها: ياكلب، ياعاهر، أتريد أنت وعاهرتك أن تدفنوني في الحياة، أنا وحدي أم خلود أتفهم، قل للعاهرة زوجتك ألا تتكلم مع ابنتي بعد الآن.

كانت تعبد أمها لكنها ترتعب من لحظات الغضب العنيف التي تنتابها، وفهمت مبكراً ما هي الكلمات التي تثير سخط أمها وغضبها وأن عليها تجنبها، لكن لسانها زل ذات يوم وأخبرت أمها

www.akhawia.net

أن زوجة أبيها تناديه فوفو، تصغيراً لفؤاد، وهبت عاصفة الغضب التي كانت تخشاها وتحذرها، وكانت تلك الازدواجية التي تعيشها والدتها تدهشها، فهي سيدة اجتماعية لبقة محبوبة مثقفة، تملك طاقة كبيرة من الحب والعطاء، لكنها حين تغضب تفقد اتزانها وتتحول لإنسانة يفرز لسانها كل الكلمات القذرة، وكانت تنكفىء متألمة تنتظر زوال عاصفة الغضب الطاحنة، وحين كانت تجدها منطلقة سعيدة تتمنى لو تركع عند قدميها وتقول لها كوني هكذا دوماً، لكنها كانت تكتفي أن تتأملها بعينين عاشقتين، وصارت نظرتها تزداد معرفة وعمقاً مع الزمن، لم تعد نظرة طفلة بريئة، إنها نظرة من يتعلم الأسرار والحكمة.

لم تكن تعي تماماً الكلام الذي تسمعه من القريبات والجارات والأصدقاء، لكن ذاكرتها الطفولية كانت تسجل وتخزّن كل ما يقال، فأمها التي كانت مصممة على الطلاق عدلت عنه أخيراً بعد جلسات عدة مكثفة من أخيها، لقد تمكن المحامي اللامع إقناع أخته بالقبول بوضعها كزوجة أولى، وعدم رفع دعوى الطلاق، حفاظاً على حقوقها وحقوق أولادها، وحين كانت أمها تصرخ: «كرامتي فوق كل اعتبار»، كان أخوها يحاول أن يهدئها ويقول: «مصلحتك ومصلحة أولادك أهم من كل شيء»!!، ولم تحفظ ذاكرة الطفلة سوى اسمين حفرا عميقاً في لا وعيها، الكرامة والمصلحة وما كانت تعي ماذا تعني الكرامة، ولا كيف تكون المصلحة..

لكنها عرفت بعد حين أن خالها نجح في إقناع أمها ألا تطلب الطلاق وسمعت خالتها تقول لها مراراً بانكسار: لست أول امرأة يتزوج زوجها مرة ثانية.

وقالت إحدى الجارات: حاولي استمالته، عساه يترك زوجته الجديدة وقالت أخرى: احمدي ربك أنها لم تنجب يبدو أنها عاقر. وقال خالها: يجب أن نحسن علاقتنا معه كي يكتب أملاكه باسم أولاده.

دوامة كانت تدور وتدور، والخلايا الفتية في دماغ طفلة ذات عشر سنوات تسجّل وتسجل، والزوجة الجديدة التي تنادي والدها: «فوفو» دخلت حياتها لتمزق أسرتها. وأبوها يترك البيت ليعيش مع امرأة علمتها الحقد، وتبقى بين حضنين أمها وخالتها، يغمرانها بحنانهما ودفئهما، كل منهما تبالغ بتدليلها، لتعوضا جرح الزمان وغدره وهي تتابع بعينين صامتتين سوداوين غامضتين كل ما يجري..

حين بلغت الرابعة عشرة حدث تغير كبير في حياتها، لم تتوقعه فقد رجع والدها يعيش معهم، رجع الزوج إلى عشه الزوجي بعد سنوات، وطلق زوجته الجديدة، كيف حدث ذلك؟! لم يشرحوا لها شيئاً، كيف قبلت أمها بهذه العودة. بعدأن ظلت سنوات تناديه بالحيوان؟ وكيف تخلى عن زوجته الجديدة الجميلة عن عاهرته كما كانت تسميها في سرها، وما سبب هذا التحوّل؟ ولماذا الصمت دوماً هو الجواب عن أسئلتها، وحين ألحت في سؤال خالتها: لماذا عاد أبي بعد سنوات ليعيش معنا، أريد أن أفهم؟ قالت خالتها متحاشية النظر في عينيها: يجب أن تفرحي فهذا لمصلحتك. وعادت الكلمتان المتزاملتان تترددان في عقلها، مصلحة، كرامة، كرامة، مصلحة. لكنها صرخت: وكرامة أمي؟

www.akhawia.net

ردت خالتها باستسلام: لكنه ندم، وحاول إصلاح ما أفسده.

وتجيب بغضب متعاظم: ندم بعد ست سنوات!

قالت خالتها محاولة امتصاص غضبها: إنه والدك على كل حال.

قالت باحتداد أكبر: لكنه ظل حيواناً لسنوات طويلة.

همست خالتها: إياك أن تقولي له ما كانت تقوله أمك.

وزأرت: أهذا ما يهمك، أنا أريد أن أفهم كيف سامحته أمي.

- أوه يا ابنتي، لأجلكما، أنت وأخوك، كي لا يبدد أمواله هنا وهناك.

- إذاً باعت نفسها وباعت كرامتها وكرامتنا لأجل المال.

- أوه، ماهذا المنطق يا خلود، إنها تهتم بمصلحتكما، ومصلحتها أيضاً، فهي بالنتيجة امرأة وحيدة، ولا تفكر بالزواج من رجل قد يظلمك وينكد عيشنا، إن رجوع والدك أنسب الحلول.

وصرخت: والكرامة أين هي؟

وتجيب الخالة فاقدة الصبر: كفى ياخلود، أرجوك انسِ، مامضى إنه والدك، ويجب أن تسامحيه.

قالت وعيناها تزدادان اتساعاً: أنسى، كيف سأنسى؟؟!!

ببساطة يطلبون منها أن تنسى، ويريدون محو سنوات من ذاكرتها كلمات ومواقف وأحداث، حفرت عميقاً في نفسها، يقولون لها ببساطة، انسِ، امحِ كل شيء كأنه لم يكن، وعادت تراقب بصمت حياتها الجديدة. عودة الأب الضال، ولم تكف عن طرح الأسئلة حول عودته، كانت تتساءل مئات الأسئلة في اليوم،

وتسائل نفسها بخبرتها المتواضعة، ويرد عقلها ولكن هذا ظلم، ليس هناك منطق ولا انسانية. ويجيب عقلها ببرود: إنه القانون.

سافرت الأسرة في ذلك الصيف إلى لندن، عسى السفر يلمّ شمل الأسرة المتصدعة، كان أخوها قد غدا طبيباً، ويعيش مع صديقته الانكليزية، كانت في الرابعة عشرة وردة حلوة متفتحة، وجه فتي يتضرج بحمرة الشباب.

سألت أمها: من هذه الانكليزية التي تعيش مع أخي.

ردت بيقين: إنها صاحبته.

- ولكن، كيف تعيش معه في غرفة واحدة. أليس هذا عيباً.

وترد الأم بلا مبالاة: في بلادنا عيب، في بلادهم ليس عيباً.

تسأل محتدة: ولكن الأخلاق هي الأخلاق فكيف تختلف؟!.

- أوه، يا خلود. هكذا تختلف.

وتتابع باحتداد: ولِمَ لا يتزوجها. وتصير علاقتهما شريفة.

ترد الأم: لا أعرف، إنه عازب على كل حال، صعب أن يعيش وحده.

وتسأل بإلحاح: والفتاة الشرقية التي تسافر إلى الخارج، أليس صعباً أن تعيش وحدها؟

فتنظر إليها أمها برعب: أعوذ بالله، لا ياابنتي، عيب أن تعيش مع شاب، عليها أن تنتظر الزوج المناسب.

- ولكن ما الفرق بين المرأة والرجل؟

- أوه يا خلود المرأة امرأة، والرجل رجل.

- لم أفهم.

www.akhawia.net

- الرجل يا ابنتي - وتصمت كأنها تتردد في الكلام - فيزيولوجياً يختلف عن المرأة، إنه يحتاج للجنس.. هكذا جسمه.

- والمرأة ألا تحتاج؟

تتأملها أمها بعتاب: لا، ليس مثله، إنها تنشد الزواج والأسرة.

- ولكن هذه الانكليزية مثقفة وجميلة وطبيبة مثل أخي، وتعيش معه دون زواج.

- أوه يا خلود، عدنا إلى الانكليزية، والله أنا لا أفضل أن يتزوج أخوك أجنبية.

- لماذا؟

- بناتنا أفضل، إنهن شريفات.

- ماذا تقصدين. بشريفات؟

- أي أنهن يقدسن الأسرة، ولا يكنّ إلا لرجل واحد هو الزوج.

- ولكن الزوج قد يتزوج غير زوجته ببساطة، كما حدث معك.

وتحتد الأم وتغضب وتصرخ بها: كفى، إن أسئلتك وقحة ولا نهاية لها.

تصمت: آلمها أن تخرج أمها عن غير قصد، وعادت تمتص الحقائق الفجّة بعينيها السوداوين اللتين تزدادان أسوداداً، ونظرتها تقسو بالحقائق الجديدة.

* * *

ما تعرفه وتحسّه أن خالتها هي أمها الثانية، وأنها تنفست حنانها منذ طفولتها، وكان لحنانه طعم خاص ومركز، إنه حنان التعويض والانكسار عن زمنٍ غدر بها، زمن لا تعرفه هي، ولم تسمع عنه سوى كلمات قليلة، ماتعرفه أن خالتها كانت متزوجة، وإنها لم تعش مع زوجها سوى سنة واحدة طلّقها بعدها، فرجعت إلى بيت أبيها، الذي تحوّل لبيت أخيها وزوجته بعد وفاة والديها، وفضّلت أن تعيش مع أختها الصغرى المتزوجة. بدل أن تعيش مع زوجة أخيها، وحين ولدتْ كانت فرحة خالتها بها تفوق فرحة أمها، لقد أحبّتها وتعلقت بها مفرّغة حنانها وأشجانها، وساكبة شحنة الحياة النابضة في شخص هذه الطفلة الحلوة، والتي تمنت لوحملتها بأحشائها وأخرجتها إلى النور.

كانت تحس أحياناً أنها جدتها، لأن الحنان السخي والدافىء والمستمر الذي تسكبه عليها كان ينسيها أنها خالتها التي لا تكبر أمها سوى بثماني سنوات، كان لها سحنة الجدات، تلك السحنة الوادعة المسالمة، التي انطفأت فيها كل الرغبات، وتلك النظرة الباسمة الواهنة التي توحي أنها في مرحلة النهاية التي لا بداية بعدها، وحين كانت أمها تتدفق أنوثة، وتلبس على أحدث صيحات الموضة، كانت خالتها لا تبالي بثيابها، هل تجاري الموضة أم لا؟ ولم تهتم إطلاقاً بتسريحة شعرها، الذي ظل دوماً معقوصاً بشكل كعكة عند نقرتها، ونادراً ما كانت تستعمل مساحيق التجميل، سوى قليل من أحمر الشفاه حين تذهب للزيارات مع أختها، أو حين يستقبلون ضيوفاً في بيتهم. لقد زهدت بالحياة وهي لم تبلغ الثلاثين، وتقمصتها شخصية الجدات الوقورات على

www.alkhawia.net

الرغم من أن العديد من الشبان تقدموا لخطبتها بعد طلاقها، إلا أنها كانت ترفض، لقد زهدت بكل متع الدنيا، وعاشت كأن نهايتها قريبة كانت قد ورثت عن والدها بيتاً قديماً، لكن موقعه مع تتالي السنين جعل قيمته تعادل ثروة كبيرة، ولم تكن تبالي بالمال، ولا تفكر بأخوتها لأنها سجلتِ البيت باسم أولادي، وماأدراكِ بغدر الزمن؟.

ردت بابتسامتها الودودة دوماً: أيغدر بي أولادك؟

لقد عرفتْ في وقت متأخر جداً عن زوج خالتها، كان تاجراً معروفاً من مدينة حماة. في الثلاثين من عمره حين انبهر بجمال خالتها التي كانت في الثالثة والعشرين، وبعد خطبة دامت شهرين أحبته خلالهما بكل مشاعرها الجاهزة سلفاً لحب أي خطيب شرط أن يتمتع بحدٍ أدنى من اللطف والجمال، وتزوجا وسافرت إلى حماة، وكانت تنتظر أن تحيا كآلاف الأزواج تنجب البنين والبنات، تطيع الزوج وتحبه وتحترمه. تقيم علاقات أسرية واجتماعية، لكن أحلامها كلها نُسفت لأن الزوج لم يكن كما توقعته أبداً. والزواج بدا لها منفى مرعباً، لقد صدمها بمشكلة ما كانت تخطر على بالها أبداً ولا تعرف عنها شيئاً. كان يتذمر من برودها الجنسي ومن غبائها - كما يقول - كانت تنكمش وتتقلص وتتضاءل. وتُسَمّر نظرها في الأرض وهي تحس أن دواراً يصيبها. ماذا يعني؟ وماذا عليها أن تفعل؟ وما هو البرود الجنسي؟ وما عكسه؟ قالوا لها هذا هو الرجل، ستعرفينه يوم الزواج، وستبدأ حياتك الجنسية معه، وتقبلت الأمر مدارية رعباً وخوفاً حاولت زجرهما وتغليب حبها لزوجها عليهما، واعتقدت أن ما

يقوله أمرٌ عابر، لكنه أخذ يعاملها بقسوة، ويطلب إليها أن تحاول إغواءه باستمرار: ويشتري لها قمصاناً شفافة عليها أن تلبسها فوق جسمها العاري تماماً، ويطلب إليها أن تضحك بطريقة معينة، وتجلس بطريقة معينة، وأن ترقص بطريقة معينة، وكان يُحضِر لها مجلات جنسية مبتذلة، ويطلب إليها أن تقلد البطلات المنحلات في حركاتهن، كان الزواج يعني بالنسبة له المتعة الجنسية ليس غير، ورغم إحساسها بالقهر، وأنها مجرد أداة لتوليد المتعة، إلا أنها حاولت، وفشلت وانهزمت، لأنها لا يمكن أن تمتلك خبرة العاهرات أبداً. ولأنها فشلت في لعبة إطلاق غرائزه البهيمية الجامحة، فقد طلّقها. وعادت إلى بيت والدها متخمّرة بالأسى والألم، وأحست أن دهراً مضى وهي بعيدة عن بيت والدها، شاخت في هذه السنة التي قضتها مع الزوج العاهر، يبست كل الحقول الخضراء التي كانت تملأ خيالها، وتحولت براءتها لطفل مصاب بالسل، فقدَ عافيته ونضارته، وتحوّل للطفل الشيخ..

تجربة مرّة ظل طعمها يلاحقها مدى حياتها، كرهت الزواج ولم تقبل إعادة الكرة ثانية رغم الحاح المقربين، كان جوابها الوحيد: لقد جرّبت نصيبي.

وتتابعت أيامها برتابة. تحولت إلى سعادتها المستكينة، كانت تتولى شؤون المنزل، من طبخ وتنظيف، وظلت الأم هي الأخت الصغيرة المدلّلة، وحين عصفت العواصف بالبيت، وتزوج رب الأسرة ثانية، كانت هي الصدر الحنون الذي استوعب الأسرة المتصدّعة المنهارة، وحين سافرت الأم المنهارة إلى مستشفى الأمراض العصبية لتعالج من الانهيار العصبي الحاد الذي ألم بها

www.akhawia.net

بعد زواج زوجها، كانت هي - أمها الثانية - تثابر على واجباتها بصمت وصلابة وحب، لقد جعلتها تجربة زواجها المدمرة تفني ذاتها في خدمة الآخرين.

ولكن ما خطَر لها يوماً أن تتمرد على واقعها وأن تحقد على زوجها أو تتساءل: كيف يرونها عذراء شريفة طاهرة (لم يقبّل فمها إلا أمها) ثم يطلبون إليها بعد الزواج أن تمتلك خبرة العاهرات في إثارة الرجال؟! أية مفارقة هذه وأي تناقض. كانت تقبل أن الحياة قسمة ونصيب وكفى، وكانت دوماً تتمنى لحبيبة قلبها خلود الزواج الموفق والخلفة الصالحة، لقد فهمت خلود حقيقة طلاق خالتها بعد سنوات، ودار بينهما مرة الحوار التالي:

- خالتي ألا تحقدين على زوجك؟

-أنا أكره الحقد ياخلود، ولاأحب أن ألومه، هكذا هو.

- لكنه سيء وقذر، وأساء إليك.

- زمن وانقضى لا داعي لافتكاره.

- لكنه سيء لماذا لا تعترفين بذلك؟.

- أوه يا خلود، إنه هكذا، هذه طبيعته، وغيره كثيرون.

ويزحف الغضب إلى صوت خلود وتصمم: لكنه وأمثاله قذرون أليس كذلك؟

- لا أعرف يا خلود، إنه رجل.

كانت كلمة رجل تحرّض فيها الرغبة بالتحدي والشجار، ولو كان رجلاً كيف يعامل زوجته كما لو كان يتمنى أن تكون عاهرة. وتقول الخالة ملطفة الحديث كعادتها: ليس كل الرجال متشابهين يا حبيبتي.

وترد خلود: افرضي أن زوجي كان من هذا النوع.

- أعوذ بالله - (بعيد الشر).

- وكيف سأعرف، هل أسأله؟

تنظر الخالة بهلع إلى الصبية المتمردة: لماذا تتحدثين هكذا؟

- ولكن قولي لي بأي حق، يطلب الرجل دوماً ويحدِّد ويقرر ما ستكون عليه زوجته، لماذا لا تطلب هي؟

- يا حبيبتي الحياة شراكة، وليست حرباً بين المرأة والرجل.

- حبيبتي هذه الأفكار تسمم روحك، إنها خاطئة. هناك حب وتفاهم وزواج ناجح وأطفال.

- وأنتِ لِمَ لم تتزوجي ثانية، مع أنك كنتِ صغيرة، جميلة.

- أوه. هكذا لقد جرّبت حظي.

- أترين، لقد دمرتك تجربة زواجك تلك.

- كفى يا خلود، لم تدمرني، أنا سعيدة جداً هكذا.

ولكن أية سعادة هذه، أنت لا تعيشين حياتك. إلا في خدمة الآخرين.

- آخرون، أنتِ، وأمك وأخوك، أنتم أحبائي!!!

وترد بحماسة:

- وأنتِ، أنتِ ما حقوقك تجاه نفسك؟

- قلت لكِ أنني سعيدة وراضية.

- لا. أنا لا أقبل بهذا الجواب، إن زوجك القذر كسَّر مشاعرك وحطّم صورة الزواج في نظرك، إن الرجال قذرون، وعلى المرأة أن تنتقم منهم.

www.akhawia.net

- انتقام؟! لكأن هناك حرباً أو ثأراً، ما هذه التعابير يا خلود؟

- نعم، يجب أن تثـأر المرأة لسنوات، بل لعـصـور الذل والاضطهاد التي تحمّلتها من الرجل، يجب أن تذله.

- لا يا خلود. إياك أن يعشعش الحقد في صدرك، الحقد مدمّر، أنت شابة حلوة ومتعلمة، وقريباً ستعرفين الحب وتتزوجين وتنجبين أطفالاً، إياك أن تستسلمي لهذه المشاعر يا حبيبتي.

تتأمل خالتها بعينيها السوداوين الحائرتين وهي تقول دون صوت بل سأثأر لك، ولأمي، وللنساء، وسترين، سترين كيف باستطاعتي أن أدمّر رجالاً لو أحببتُ، يا خالتي المسكينة ويا أمي الثانية الرائعة. ويا أمي الحبيبة التي أنجبتني، كيف لي أن أنسى سفرك إلى مشفى الأمراض العصبية، وحين كنتِ مرمية في فراش الانهيار، يزرقونك بالإبر المهدئة والمضادة للاكتئاب، كان زوجك أي الرجل، يعربد في فراش مراهقة ترك أسرته لأجلها..

الحقد نهر أسود تغذّيه روافد، فبعد عودة والدها للسكن معهم، ومع أن عودته كانت مفاجئة وغير متوقعة، إلا أنها حملت بعض الراحة والاستقرار لها، كونها طردت أخيراً شبح الزوجة الثانية، لكن طعم مرارة ظلّ يلازمها، لم تقنعها عودته في الصميم. ثمة سر في هذه العودة المتأخرة جداً، وبلا أسباب واضحة، هل ندم؟ وكيف داهمه هذا الندم المفاجيء؟ وكيف ارتضت أمها أن تعود للعش الزوجي الذي تعفّر في الذل والغدر؟ والمصلحة والكرامة، هل يمكن أن يتصافيا يوماً ويتصالحا، أم أنهما عدوان لدودان أبداً؟ ولم تتركها بذرة الشك ترتاح منذ يوم عودة

والدها، إلى أن تفجّر ذات يوم شجار حاد بين والديها بعد شهور من رجوعه، إنها لاتذكر سبب الشجار، وما الموضوع الذي اختلفا بسببه، إلا أن صوت أمها الغاضب اقتحم غرفتها صريحاً قوياً.

-أنتَ لم تندم، ولم تعد، إلا لأنك صرت عنيناً.

وأمكنها أن تسمع صوت صفعة قوية، وصوت والدها يتهدج بالغضب: اخرسي.

وعمّ الصمت في البيت كلّه، أياماً طويلة، لم يُسمع إلا الكلمات الضرورية والملحّة. حتى الخالة الأم لزمت الصمت. لكن كلمة عنين ظلّت تطنّ بأذنها، تسمعها في صحوها ومنامها، ولم تجرؤ أن تسأل أمها عن معناها، وحين سألت خالتها أجابت متهربة أنها لاتعرف، وبرقت بذهنها فكرة: سأجد المعنى بالتأكيد في مجلة طبيبك، وأحضرت أعداداً كثيرة من المجلة وأخذت تنبش فيها حتى عثرت على مقال عنوانه العنانة عند الذكور. وخفق قلبها وهي تقرأ أنها تعني عدم القدرة على المجامعة. وقرأت أسبابها النفسية والجسدية، وتأثير الحكول والتدخين والسكري إلخ من أسباب، عرفت أخيراً لماذا رجع الوالد المصون، وصلّبها الحقد وهي تقول لم يندم إذاً، لقد تركته عاهرته، أوزوجته الشابة لأنه غدا عنيناً، فتذكّر الاحتياطي الذي يملكه -زوجته الأولى- التي ابتلعت الخيانة وارتضت الذل لأجل المصلحة. عاد متذرّعاً بالندم ليخفي هزيمته، شكوكها لايمكن أن تخيب أبداً.

ولولا طبع أمها الغضوب والعصبي الذي جعل هذه الكلمة تنطلق من شفتيها لحظة غضب أعمى، لما عرفت أبداً سبب عودة

www.akhawia.net

والدها. لقد رفدت هذه العودة المبطنة حقدها بزخم جديد، هكذا هو الرجل، خائن، مخادع، والذي يذلّ المرأة ويضطهدها يجب أن تنتقم منه المرأة وتذلّه. كما أذلّها عبر العصور.

كانت مُشبعة ببخار الحقد الرصاصي الثقيل، يملأ أنفها وقصباتها ويترسب عميقاً في رئتيها، كانت تؤكد لنفسها بصلابة أنها لايمكن أن تكون نعجة، ولازوجة مخلصة غبية. إن الحرب مع الرجل تغريها حتى الاستشهاد «فاقبلوا حقدي يارجال، أنتم البادئون، وسأجعلكم تترامون عند حذائي منهارين» هذا ماكانت تقوله لنفسها مراراً.

لو كان حقدها المتجذّر كالسرطان في روحها، على الرجال، وحده الذي يعذّبها، لهان الأمر، فالمشكلة تكون محصورة ومحدّدة ووحيدة، وتكون طاقاتها مجنّدة لمحاربة هذه المشكلة، لكنها كانت ممزّقة بين حقدها وبين ميلها الغريزي والطبيعي للرجل، إنها تشتاق إليه حين تنفلت مشاعرها من رقابة حقدها، وتتوق للحب، وتهفو للمسة وقبلة، وتتخيل نفسها في ثوب الزفاف الأبيض. كما تتخيّل أنها حامل وستغدو أماً، والجسد البض الفتي لايحتمل الحرمان طويلاً، لكن الرجل الذي سيمتلكها ويطفىء شوقها هو عدوها الذي تحقد عليه منذ سنين، والذي ازداد حقدها تصلباً مع الزمن، فكيف تهفو لعدوها، تنشدّ إليه وتتمنّى الذوبان بين ذراعيه. كيف ستحرّر شوقها للرجل من حقدها عليه، شوقها مُستعمِر لحقدها، ماالحل؟ قلبها مشطور قسمين، قسم يهفو للرجل وقسم يريد الانتقام والحرب والتدمير، وهي المحصلة تتمزّق وتتلاشى نتفاً، آه ماالحل؟ لقد عذّبها الحل

طويلاً، لكن كلمة سحرية قفزت فجأة إلى ذهنها لتضع الحل الوحيد، المصلحة، أجل هكذا تهدأ، وتحدّث نفسها بثقة: أنا قوية أملك كل الأسلحة. الشباب والفتنة والجمال والعلم والدهاء الأنثوي.

وتقول بتأكيد وكأنها اكتشفت المعادلة الوحيدة، أو حلّت الغز المستعصي: لن أكون العذراء البلهاء كما كانت أمي وخالتي، سألهو، وألهو وأحطّم قلوب كثيرين، في الخفاء، في السر وبأكبر حذر ممكن، ثم سأتزوج الرجل الذي سيحقق لي طموحاتي الكثيرة في الحياة، من مركز اجتماعي وغني، ولن أخلص له أبداً، وعند هذا الحد يهدأ فوران حقدها، وتجد للواعج مشاعرها التواقة للحب حلاً يهدئها، ويعِدُها أنها ستلقى متنفساً ستبحث عنه جاهدة.

* * *

الجامعة عالمٌ جديد، شبابٌ يتفتّح على العلم والحياة والحب، حلمٌ ينتظره العديد من الشباب والشابات. ليلتقوا، ويتقاربوا ويتحابوا لتزول الحواجز والقيود، وخلود حاصدة المعجبين، والمحققة للرقم القياسي من المتيّمين. لم تعنِ لها الجامعة الكثير، صحيح أن المعجبين أرضوا غرورها، بل أشبوه، وتقدم العديد من الشباب المرموقين لطلب ودّها، لكنها كانت ترفض، ويزيدهم رفضها إلحاحاً على التمسك بها، كانت تتساءل مستخفة بهم: ماذا يرون فيّ سوى تلك العينين الواسعتين السوداوين. والبشرة

www.akhawia.net

البيضاء الوردية الناعمة التي يشتهي النسيم مداعبتها، والقوام النحيل الممشوق المتناسق، والشعر الغجري الفاحم المنسدل حتى منتصف ظهرها.

هل يقدر أحد هؤلاء المتيّمين أن يسبر سواد العينين الساحرتين ويرى في الليل البهيم؟ هل يقدر أحدهم أن يحزر أن وراء تلك الفتنة الهادئة، آباراً من الحقد الأسود المدمّر وتلك النظرة المحايدة الصامتة التي تعلّمته منذ طفولتها، من يفهمها؟ إنها لاتريد الارتباط الآن، لن تقدّم نفسها برعماً لم يتفتّح بعد لرجل واحد يقطفها ويشم رحيقها وحده، إنها تريد المغامرة، المغامرة بمعناها الواسع العريض، تريد أن تجرّب كل ماهو محظور على عذراء تود أن تعيش على شفير الهاوية تخشى السقوط كل لحظة. ومامعنى الحياة إذا لم تقتحم المجهول الممتلىء فتنة وإغراء وسراً؟ أين ساحة القتال والقتلى، والرجال المترامون تحت قدميها ينشدون رضاها، إنها لاتعيش سوى الروتين الممل القاتل، والماضي يبقى وشماً في ذاكرتها، صحيح أنها تتذكّر كل لحظة، وأحياناً تشعر أنها نسيته، لكنه مطبوع عميقاً في خلايا دماغها، وقد ترك خلاصته المرّة، حقد غريب يشبه الحموض المركّزة، يذيب كل شيء ويفنيه.

لقد جعلها حقدها تفقد البصيرة، وغاب عن بالها أن للحياة وجوهاً كثيرة، وأن هنالك الكثير من الرجال المظلومين المخدوعين وكثيراً من النساء الظالمات، اللواتي دمّرن أسراً، لقد سيطر حقدها تجاه الرجل على كل طاقاتها العاطفية، وعطل قدرتها على المحاكمة العقلي، كانت أبواب العصاب تنفتح على مصراعيها لاستقبالها وكانت كمن اتّخذ قراراً حاسماً هو مجرّد التصميم على مخالفة البيئة التي تنتمي إليها. صارت مخالفة البيئة بقيمها

الأخلاقية. وعاداتها وتقاليدها غاية بحد ذاتها، والتمرّد صار هدفاً قائماً بذاته، هكذا كانت تفهم الحرية، وكان غليان حقدها يبرد حين تصل إلى هذه النقطة، لذلك احتلّت كلمة (لا) الصدارة في مفرداتها وقراراتها فإذا اقترحت عليها أمها موديلاً معيناً لفستان أو كنزة، كانت ترفض قبل أن تناقش الفكرة، رفض لمجرد الرفض، وقد تسجّلت في الجامعة في قسم الأدب الانكليزي لمجرّد أن والدها كان راغباً بشدّة أن تتسجّل في كلية الهندسة المعمارية. لتتسلم مكتبه الهندسي فيما بعد، لم يكن الأدب الانكليزي رغبتها المفضلة أبداً، كانت تحس بسعادة خبيثة وهي تكسر كلمة والدها وتخيّب أمله. لكنها بعد أشهر أحبّت دراستها وتفوّقت فيها، وكانت تشبع غرورها وهي تعي تميّزها عن بقية الطلاب، والفرق الشاسع بينها وبينهم وهي خريّجة مدرسة الراهبات الخاصة، التي تولي أهمية كبيرة للغة الأجنبية، وبعد حصولها على الكفاءة، ذهبت إلى لندن عند أخيها لتتسجّل في أحسن معاهد تعلّم الانكليزية، وفي لحظات تخبّطها وألمها كانت تتمنّى لو يكون أخوها إلى جانبها، إنها لاتذكره إلا مسافراً بعيداً، والسنوات التسع بينهما تخلق فجوة يصعب ردمها، وفي لحظات متباعدة كانت تتمنّى لو ينتشلها من بئر أحقادها، ويشفي جراحها التي قست وصارت دمامل مزمنة لكن أين هو؟ أليس الموت غربة طويلة؟! وكانت في رسائلها الطويلة له تكتب له كل مالايعبّر عنها، كلام سخيف عن الجامعة والدروس والطلاب، والرحلات والمشاوير، وكان يرد على رسائلها كما لو كانت وحيدته المدللة، كان من حيث لايدري ينمّي نزعتها النرجسية ويغرقها بالهدايا وينصحها دوماً أن تعيش حياتها، وألاترتبط إلى أن تنهي دراستها الجامعية.

www.akhawia.net

لم تكن تعرف أنها في ذلك اليوم النيساني الدافىء، سيلتقي سأمها بسأم البيرتومورافيا، لتكون هذه الرواية بمنزلة المتنفس الذي ستنفلت منه طاقاتها المخزونة والسجينة لسنوات، ألم تقرأ ذات يوم، أنه يمكن للبعض أن يتأثر بشخصية في رواية ويعيش حياته يقلّدها وكأنها تقمّصته، هل وجدت نفسها في فتاة مورافيا العابثة اللعوب؟ هل أحسّت سأمه يعكس سأمها؟ أليست هذه الرواية بمنزلة الشعرة التي قصمت ظهر البعير؟ وأن مشاعرها المحتبسة لسنوات كانت على وشك الإفلات من القمقم، وما كانت بحاجة إلا لمسبب مهما كان بسيطاً وتافهاً كي تنفجر؟.

وشاءت الظروف أن تكون تلك الرواية الآسرة هي المفتاح السحري الذي سيفتح باب المغارة السحيقة في أعماقها والتي يترسب في قاعها حمض الحقد المركّز الذي يذيب كل شيء ويلاشيه في العدم.. غرقت في القراءة مساء الخميس، حتى لاح فجر يوم الجمعة احتاجت لأربعة فناجين قهوة كي تسهر الليل كله لتكمل الرواية التي شدّتها ومغنطتها بقوة سحرية. وبعد أن انتهت من القراءة أحست بإنهاك شديد، كانت غريقة بحرمورافيا، في سأمه، أسرها، فتنها وشتتها. ولّد آلاف التساؤلات في أعماقها، وبقدر ماأحست بحنق ونقمة على بطلته سيسليا، وهي مراهقة في الثامنة عشرة تقيم علاقة مع رجلين بآن معاً، ودون أي شعور بالذنب أو الخوف بقدر ما أحست بسعادة خبيثة.

أن سيسليا هذه تنتقم من الرجال بدلاً منها، وتذلهم، لكن أي انتقام هذا؟ وعقلها علمها أن فتاة كهذه يجب أن يحكم عليها أنها منحلة وساقطة وعاهرة، وهل ترضى أن تكون مثلها؟ لا، أبداً، لكنها تحسدها على الحرية المطلقة التي تتمتع بها، وعلى شفائها من

عقدة العذرية والعفة والسمعة، وغيرها من الكلمات التي رضعتها مع حليب أمها وتنشقتها مع الهواء.

استيقظت عصر يوم الجمعة على صوت خالتها، تناديها بحنان: - خلود، ما بكِ نائمة حتى الآن، هل تشكين من شيء.

ردت باسترخاء: إنه سأم مورافيا.

لم تفهم خالتها ما قالته سألتها: ماذا قلت؟.

قالت وهي تتمطى: أوه لا شيء..

سألت خالتها: هل تعرفين كم الساعة الآن؟

قالت: لا.

ردت أمها الثانية: إنها الرابعة بعد الظهر.

قالت بتثاقل: أوه يا خالتي لقد سهرت حتى الفجر.

- ولماذا ترهقين نفسك بالدراسة لهذه الدرجة.

- لم أكن أدرس، كنت أقرأ.

- أتقرأين حتى الفجر؟.

- أجل، كانت رواية رائعة.

-أوه الروايات، كلها خيال.

- لا، يا خالتي، إنها واقع أكثر من الواقع نفسه.

- لا تفلسفي الأمور على خالتك البسيطة، قومي تناولي غذاءك، وستزورنا أم هاني الساعة السادسة، يجب أن تجلسي معها.

- ولماذا أهي صديقتي؟.

www.akhawia.net

– وغمزتها خالتها: إنها تحبك كثيراً، ولا تنسي أن هاني وحيد لأم وأب يتنافسان في الثراء . . .

– وما أدراك أن أم هاني تفكر بي زوجة لهاني .

– ردت خالتها بثقة: وهل ستجد أفضل منك، في الجمال والعلم والأخلاق .

لم ترد، كانت تتأمل خالتها التي قطعت الخمسين . تأملت وجهها الذي أخذ الزمن يطبع بصماته عليه وعلى رقبتها المتهدلة، وذبل شبابها في هذا البيت، وحدثت نفسها وهي تذوب بعاطفة جياشة نحو خالتها: مسكينة خالتي لم تكن تملك خبرة العاهرات في إشعال رغبة زوجها، ربوها عذراء مسكينة لا تعرف شيئاً . ثم فتحوا باباً وأدخلوها غرفة حمراء، وقالوا لها هيّا تعرّي وانطلقي في متاهات الجنس المظلمة .

اتجهت للحمام ووقفت تحت دوش الماء الفاتر بلا حراك كانت مسترخية سعيدة، وأحسّت أن قطرات الماء التي تبلل جسدها هي كلمات مورافيا في روايته السأم . إنه يغمرها، يُشبعها يبخاره، وحين خرجت من الحمام، وقفت أمام المرآة الطويلة عارية، وتساءلت: تُرى هل أشبه بطلة مورافيا؟ هل اكتشفتْ مشاعر لم تميّزها بعد تدلّها أنها تُشبه تلك المراهقة اللعوب الفوضوية . وأين كانت هذه المشاعر مختبئة؟ لبست ثيابها وهي تحاول التحرر والخروج من جاذبية الرواية، قالت لنفسها: أوه كل ما في الأمر أني قرأتها دفعة واحدة، وأن أسلوب مورافيا جذاب لدرجة لا تقاوم، لكن رعدة خوف انتابتها، لاتعرف سببها، كأنها حدث لأمور خطيرة ستحدث قريباً، أليس هذا هو الحدث كما يفسّرونه؟

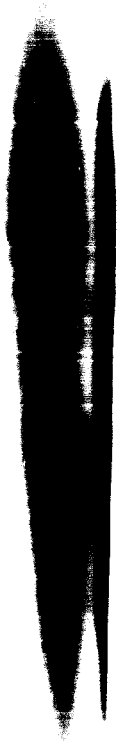

ولماذا خشيت هذه الشخصية بالذات؟ لماذا كرهتها وأحبتّها بآن؟ أليس لأنها تعكس لها جانباً مخفياً في داخلها؟ ! .

* * *

لم يكن ألبيرتو مورافيا يعلم أنه بسأمه سيفجّر صداقة بين فتاتين ماكان لهما أن تكونا صديقتين لولا سأمه، صحيح أن زمالة باردة جمعتهما في الجامعة منذ سنتين، لكن هذه الزمالة ظلّت محايدة قزمة لم تتطور، ولم تتعدّ الحديث عن محاضرات الجامعة واستعارتها وتصويرها ثم إعادتها، ولم تُثر أي منهما فضول الأخرى، ولم تحاول أي منهما أن تسأل زميلتها أية أسئلة شخصية، ماكانت تعرفه شادية أن خلود برجوازية أنيقة مجتهدة متكبرة مدللة، وماكانت تعرفه خلود أن شادية فقيرة قروية عاشقة، كانت تسمّيها فتاة الجينز الأزرق لأن شادية كانت تلبس دوماً بنطال جينز أزرق مع قمصان بعيدة عن الموضة، لكن وجهها يشبه وجه الملائكة ببشرته الصافية وعينيها الصغيرتين الخضراوين، والمشعّتين دوماً ببريق السعادة والحب، كانت تحب شاباً أسمر طويلاً يبدو كلاعب كرة قدم، وكانت تتأبّط ذراعه وتلازمه، وكان منظر العاشقين يحرك في نفس خلود سخرية وشفقة وهي تراهما كيف يتناولا غذاءهما في المقصف، سندويشات مسخّنه يبتلعان لقماتها الجافة بمساعدة بلعات كبيرة من الشاي أو المياه الغازية . .

كانتا أشبه بدائرتين متلامستين، لكن سأم مورافيا جعل الدائرتين تتقاطعان وتتداخلان . وبعد أن أنهت خلود قراءة

www.akhawia.net

السأم. وجدت نفسها تتساءل وهي تصغي بذهن شارد لأم هاني تحدثها عن مزايا وحيدها الذي لايجود الزمان بمثله، وتتساءل من تكون شادية هذه، وكيف حصلت على رواية لها هذا السحر المميّز؟!...

أية جرأة تتمتّع بها هذه القروية البسيطة، طالبة الجينز الأزرق وهي تحب هذا الشاب الأسمر على الملأ.. وهو ليس خطيبها لأنها لاتلبس خاتم خطبة، ولكنها تبدو سعيدة ومتوازنة رغم الفاقة التي تجلّلها، كيف لم تتساءل عن هويتها من قبل؟.

في اليوم التالي كانت تنتظرها ومعها الرواية المُصفرّة العتيقة كان عليها أن تعتذر عن تلك الصفحة التي اضطرت لرميها بعد أن نشّت وتشققت بدموعها، ولمحتها من بعيد ببنطال الجينز الباهت الأبدي. تتأبط كراريس الجامعة، وحقيبتها الوحيدة المشققة الكبيرة المنتفخة دوماً، كانت تغبطها وهي تسترجع صورتها تتأبط ذراع حبيبها ورأسها لايبلغ أعلى كتفه، لوّحت لها بيدها فردّت شادية بابتسامة شعّت في وجهها ودخلت المقصف وجلست إلى جوارها..

أعادت لها الرواية وهي تشكرها قائلة: لقد سجنني مورافيا يومين بسأمه.

ضحكت شادية ببراءة وقالت: لقد سجنني قبلك يومين أيضاً. فجأة زالت الكلفة بينهما، وقالت خلود: إنها قصة رهيبة حقاً. بدت الدهشة على وجه شادية الطفولي وقالت: رهيبة، ماذا تقصدين؟.. ردّت بتأكيد: هذه العاهرة تقيم علاقة مع رجلين بآن واحد.

ضحكت شادية ضحكة أقرب للسخرية: أوه هكذا ظننت أنا في البداية، ولكن فهمي أفهمني فكرة الرواية.

استدركت شادية أن عليها أن توضح لخلود من يكون فهمي، قالت ببساطة:

-فهمي الشاب الذي أحبه.

راق لخلود هذا التعبير الحر. إنه ليس الزوج ولا الخطيب إنه الرجل الذي تحبه، تقولها بثقة وجرأة، كأن هذا حقها الطبيعي، تأملتها تشرح لها فكرة الرواية، وتتابع حركات شفتيها وبريق عينيها وكلماتها: كانت شادية تتحدث ببساطة: الفكرة هي الامتلاك، فالفنان الثري الذكي لم يستطع أن يمتلك تلك المراهقة البوهيمية الفقيرة التي ليس لها ميزة سوى أنها رفضتْ أن تُمتلك، لم يستطع امتلاكها لا بالجنس ولا بإغواء المال. ولا بطرح الزواج، ولاحتى بتحقيرها وإذلالها. ظلّت نفسها حرة غير قابلة للشراء والإمتلاك لكن خلود ردّت بانفعال، كمن تعلّم أن يجيب بطريقة مُعدّة سلفاً حين يكون النقاش يدورحول علاقة امرأة برجلين..

- لكنها عاهرة. فكيف تقيم علاقة مع رجلين بآن معاً.

ضحكت شادية كاشفة عن أسنان بيضاء منضّدة: ألا يقيم الرجل علاقة مع امرأتين أحياناً؟.

وخفق قلب خلود وهي تحس أنها محاصرة تبحث عن حجج لاتجدها: لكن هذا خطأ.

ردت شادية: أنا معك، لكن المجتمع لا يعتبره خطأ، بل حق وضحكت وهي تقول: زوجة أولى، ثانية، ثالثة، رابعة..

www.akhawia.net

كانت خلود تحدق بوجه شادية الملائكي، واضطرت أن تعترف بسرها أن شادية فتاة مميزة وحقيقية، للمرة الأولى تطلق كلمة حقيقية على إنسانة، أحست أنها تلمس جوهراً نقياً خالياً من كل زيف وتعقيد، وأحست أن مئة خيط يشدّها إلى هذه الفتاة، وأنها متعطشة لصداقتها.

طلبت خلود سندويشات جبنة بيضاء مسخنة، ودفعت الحساب، فشكرتها شادية برقة، وأمكن لخلود أن تلمح طيف ذل وخجل على الملامح الملائكية الرقيقة، وتمنت لو تقدم لها بعض ثيابها التي تطفح بها خزانتها، أي دفق غريب من مشاعر الود والحب تحسه فجأة - وللمرة الأولى في حياتها- تجاه صديقة، لم تستطع أن تصفها سوى أنها حقيقية.

سألت شادية: هل أعجبك مورافيا؟.

ردت خلود: إنه آسر حقاً.

سألت: أترغبين أن تقرأي له أيضاً.

- أتمنى.

ضحكت شادية وهمست في أذن خلود: سأحضر لك رواية ممنوعة عنوانها أنا وهو.

- أكون شاكرة لك.

سألتها شادية هامسة: هل تعرفين ما المقصود بهو.

- كلا.

- المقصود العضو الذكري.

ذُهلت خلود وتساءلت: هل يعقل أن يقصد - وتلكأت- كما تقولين:

- أجل، إنها رواية رائعة حقاً، وسوف تشدك كما شدتك رواية السأم.

- ولكن من أين لك هذه الكتب.

تورّد وجهها وقالت: كلها كتب فهمي، إنه يقرأ كثيراً، على فكرة. ما رأيك لو أعرفك به.

- لقد شوقتني حقاً للتعرف إليه.

سيمر لاصطحابي ظهراً بعد المحاضرات.

- لكني لا أحب أن أكون عزولة بين عاشقين.

ضحكت شادية ضحكة صافية وقالت: لست عزولة، نحن عاشقان قديمان منذ خمس سنوات.

انطلقت آه الدهشة من حنجرة خلود: خمس سنوات.

- سوف أحكي لك ذات يوم قصة حبنا، إنها تشبه قصص الحب الخالدة كروميو وجوليت.

قاطعتها خلود: لا أرجوك، إياكما أن تنتهيا إلى الموت بسبب الحب.

ضحكتا، وقامتا تتجهان إلى قاعة المحاضرات، بعد أن لعب سأم مورافيا دور الوسيط في إزالة الحواجز الكثيرة التي كانت منتصبة بينهما.

كان فهمي بانتظار حبيبته في مقصف الجامعة ظهراً، تسارعت خطوات شادية وهي تتأبط ذراع خلود وتقول لها: تعالي أعرفك بفهمي.

www.akhawia.net

جلسوا على طاولة منعزلة في المقصف الخاص بالطلاب، قدمتهما شادية لبعضهما ببساطة ناطقة باسميهما خلود، فهمي. . . .

كان فهمي لبقاً وجذاباً قال: أهلاً خلود، لقد حدثتني عنك شادية مراراً، قالت إنك أشطر طالبة. وأجمل طالبة أيضاً.

شكرته وهي تحس بسعادة المديح. وقالت شادية:

-حاذر سأغادر إذا استمريت في مدح خلود.

ضغطت يدُه على يدها بحنان وقال وعيناه السوداوان تؤكدان أنه يعبدها: أنت أجمل امرأة في نظري.

قالت خلود: أتعرفان: أنا أغبطكما على علاقتكما، ترى هل تختلفان؟.

ضحكا معاً، وهمّا بالكلام سوية. لكن شادية سبقت:

-نختلف على أمور سخيفة ونتخاصم، لكننا نمرض إذا طال زعلنا - حتى الآن، أطول شجار بيننا استمر يومين.

قال فهمي: في البداية كنّا نختلف كثيراً، أما الآن فقلّما نختلف.

اقترح فهمي أن ترافقهما خلود إلى المطعم الذي اعتادا أن يتغديا فيه، مطعم شعبي بسيط قرب سينما الكندي، السينما المشهورة بمهرجانات السينما.

قال موجهاً كلامه لخلود: تعالي نتغدّى معاً، ثم نحضر فيلم ميديا لمخرج إيطالي مشهور، أوه نسيت اسمه أظن بازوليني.

انتفضت شادية فرحة فقالت: هل حجزتَ للشلة كلها. . .

قال: لا، لكنهم يعرفون أن أسبوع الأفلام الإيطالية سيبدأ اليوم. .

قالت شادية: إيه مارأيك ياخلود، أتأتين معنا. . .

اعتذرت خلود بلباقة وقالت: لا، شكراً، لم أقل لأهلي. .

قالت شادية يمكنك الإتصال بهم.

-شكراً، ستحكين لي قصة الفيلم غداً.

قال فهمي: إن ميديا أسطورة رائعة، أنصحك أن تشاهدي الفيلم، إنها تعالج الأنانية المرعبة التي تصل بالإنسان إلى قتل أولاده. قاطعته خلود: أوه هذا غير معقول:

ردّ فهمي بابتسامته الودودة: إن كل شيء معقول ياخلود في هذه الحياة، فالأنانية وحب الذات مدمران.

مسّها هذا الكلام، كأنه يعنيها، تُرى إلى أي حد تعشق ذاتها؟ كانت مشاعر من الشفقة والغيرة تنتابها تجاه العاشقين النابضين بالحقيقة، جعلها تشعر أنها باهتة، كأنها تطل على الدنيا من خلال ستارة شفافة، تحلم وتحلم، أما هما فيعيشان صلب الحياة، غريب أمر السعادة، إنها لغز الحياة المحيّر، ما الذي يسعدهما، وجيوبهما خاوية، ومعدتهما متقرحة من السندويش والمستقبل الغامض يرعبهما؟ لكنهما مع ذلك حقيقيان أكثر منها هي، الحالمة التي تنتظر أن تبدأ حياتها وأن تمتلىء بالأحداث، كيف؟ ومتى؟ وهل سيطول انتظارها؟ لاتعرف، كانت غارقة بهذة الأفكار، حين تنبّهت لصوت شادية تقول: خلود معجبة بألبيرتو مورافيا، وقد وعدتها أن أعيرها كتاب أنا وهو.

www.akhawia.net

تدخلت خلود لتطرد شرودها: أجل، لقد بهرني بروايته السأم.

قال فهمي: على فكرة عندي المجموعة الكاملة له، وأنا تحت أمرك. يمكنكِ الحضور مع شادية أي يوم ترغبين وتختاري من مكتبتي ماتريدين.

تدخلت شادية: تقصد مكتبة عقيل..

ردّ فهمي: أوه، لافرق.. وأوضح فهمي، عقيل صديق الطفولة، إنه مغرم بالقراءة والموسيقا والسينما، وهو طالب في كلية الطب، في سنته الخامسة...

سألت خلود: وهل يملك الوقت ليدرس ويقرأ..

ضحكت شادية: إن عقيل، لاينام سوى خمس ساعات، وكل يومه عمل مفيد، كما يقول.

قالت خلود: لقد شوّقتني لرؤية مكتبته...

قال فهمي: إنها بحكم مكتبتي، فأنا لي مطلق الصلاحيات في الإعارة.

قالت شادية: تعالي نزور فهمي غداً مارأيك...

ردّت خلود مُحرجة: ليس بالضرورة غداً، لكني سأزوره بالتأكيد وبرفقتك طبعاً..

استأذن العاشقان وانصرفا، أحست بمسحة كآبة تكسو وجهها وتزيد عينيها السوداوين اتساعاً وعمقاً، تابعتهما حتى اختفيا، تساءلت حزينة: ترى ما الذي أريده من الحياة؟

وكيف تراها ستستعمل الحياة؟.. التي تفتح لها ذراعيها وتقول لها: اختاري طريقك، كيف يمكنها أن تختار؟.. بل لتقول ما أصعب الاختيار.

* * *

تفجرت صداقة الفتاتين فجائية عنيفة. وصارتا متلازمتين دوماً، وزالت الحواجز بين خلود وفهمي أيضاً. صارت تعتبره أخاً وصديقاً. وانتزع هذان العاشقان احترامها، بل دهشتها أيضاً، بعد أن حكيا لها عن حبهما المناضل الذي تحدى إرادة الأهل. وقاوم الصعوبات المادية، وعرفت أن فهمي يصرف على شادية، لأن أهلها امتنعوا عن إرسال نفقات الجامعة بعد إصرارها على الارتباط بفهمي، كانوا يجدون في ابنتهم مواصفات ليختارها رجل ثري، ويعتقدون أن الحب أوهام وكلام فارغ، لكن أمام عناد ابنتهم وشراستها، لجؤوا إلى الضرب والتهديد، فأصرت شادية وأضربت عن الطعام، حتى خشوا حقاً أن تموت، ثم أطلقوا سراحها، فعادت إلى دمشق تلحقها اللعنات وحلفوا يميناً أنها لن تنال قرشاً منهم.. وعملت شادية سكرتيرة في أحد مكاتب الاستيراد والتصدير، ولأنها أحسّت بعد فترة أن جو العمل ليس نظيفاً، فقد تركت عملها وتفرّغت لدراستها، كان رجل حياتها يصرف عليها، وعاشا بسعادة غامرة أنهما حران، يصنعان حياتهما، مهما كانا فقيرين.

كانت خلود تقول لهما دائماً: أنتما تشبهان أبطال القصص.

فيرد فهمي ضاحكاً: ألم يكن أبطال القصص بشراً مثلنا؟.

www.akhawia.net

وتقول باستغراب: شادية بطلة حقاً، إن فتاة أخرى ماكان لها أن تحتمل الضرب ومقاطعة الأهل.

وتقول شادية باعتداد: الحب الأصيل يجعل الانسان بطلاً.

هل كان كلام شادية يقنع خلود تماماً؟ أم أن كل شيء كان يدخل مصنع حقدها ليفَسَّر من جديد، وتُعاد صياغته، فشادية تغدو مغفّلة لأنها فتاة والمجتمع يلومها ويحاسبها ويصلبها على علاقتها الحرة مع شخص لاتربطها به أية صفة شرعية، سوى أنها تحبه، إنها الخاسرة الكبرى، أما هو فلا عفة ولاسمعة ولاعذرية تقيّده فماذا سيخسر؟!. إنه رجل، خارج عن القانون، بل هو صانع القانون الذي يكبّل المرأة ويضطهدها، ويعطي لنفسه امتيازات كبيرة... لكنَّ شيئاً ما في شادية ظلَّ يتحدى أحقادها. ربما توازنها، واستقرارها لا ليس تماماً، لقد عرفت لماذا تتحداها شادية بعد زمن من علاقتهما إنها السعادة... شادية سعيدة في أعماقها، سعادة الحرية والاختيار الحر والحب، وهي لم تعرف للسعادة طعماً، لأن الحقد هو العدو اللدود للسعادة، إنه أشبه بغيوم سوداء تحجب شمس السعادة، لقد فهمت ماكانت ترده خالتها دوماً أن المال لايجلب السعادة، وتذكّرت كيف كانت تتلقى هدايا أخيها الفخمة بلا مبالاة، وأحياناً لاتفتح العلب إلا بعد أيام من وصولها، لقد أحسّت أنها مستقطبة لعلاقة شادية وفهمي بدافع الفضول، لتتفرج على علاقة حية حقيقية مدهشة، لقد انتزعا احترامها عنوة، وكانت شاهد عيان للتعاطف والاحترام والحب العميق الذي يربط بين هذين العاشقين. وذات يوم قالت لشادية: لم أتوقع أن يكون فهمي مثقفاً لهذه الدرجة.

قالت شادية بافتخار: فهمي يفضّل شراء الكتب عن شراء اللباس أو الطعام.

- أتعرفين، لقد أحرجتني حين طلبتِ إليه أن نناقش رواية أنا وهو.

- لماذا الحرج، إنها رواية هامة.

- أجل، أتعرفين كنتُ أحوم حول فهم الرواية، لكني لا أبلغ مركزها أبداً. فهمي تعابيره مركزة. دقيقة موجزة، لقد أفهمني باختصار أن الأنا هو الجزء الراقي من الشخصية: الأخلاق الطموحات، أما الهو فهي الغرائز الدنيا التي تشد الإنسان للأسفل إنها فكرة رائعة حقاً، فكلنا نعيش هذا الصراع.

كانت شادية سعيدة أن صديقتها أخذت تنقاد شيئاً فشيئاً لعالم الشباب المثقف الذي يعيش في قلب الحياة. سألتها ذات يوم:

-لماذا لاتأتين معي لنزور فهمي وتتفرجي على مكتبته.

ترددّت خلود مع أنها أكّدت لفهمي أنها ستزوره وقالت: لاأعرف.

- هل تخشين أن تزوري شباباً في بيوتهم؟

- ربما.

- خلود، لماذا تخافين دوماً من كلام الناس؟.

- ألا يقولون داروا سفهاءكم؟.

- أجل، ولكنك لاتفعلين شيئاً مشيناً، ثم إن دمشق مدينة كبيرة، فمن سيعرف أنكِ زرتِ فهمي.

-معك حق.

www.akhawia.net

فكّرت أن دمشق كبيرة جداً، ستضيع فيها، فمن سيعرفها في ساحة العباسيين الكبيرة، وقرّرت أن ترافق شادية لتزور فهمي في ساحة العباسيين.

حين توقفتْ السيارة في ساحة العباسيين، حيث أشارت شادية للسائق، وخاطبت خلود مشيرة إلى بناية ضخمة مؤلفة من خمسة عشر طابقاً، قالت:

-هنا يسكن فهمي.

اتّجهت خلود بشكل آلي إلى باب المصعد تسبق صديقتها ببضع خطوات والتفتت لتنتظر شادية التي تأخرت في اللحاق بها، لتجدها غارقة في الضحك، سألتها خلود مندهشة: شادية، مابكِ؟.

دمعت عينا شادية من الضحك وقالت: ماذا تفعلين عند باب المصعد؟.

سألت خلود: في أي طابق يسكن فهمي؟

كانت شادية مستمرة في الضحك، ولم تقدر أن تتكلم وأشارت لصديقتها أن تتبعها، وقادتها شادية إلى مدخل ضيق بالكاد يُلاحظ، خلف باب المصعدين المضيئين، أين كان مختبئاً هذا المدخل؟ إنه لايتّسع لشخص بدين، وينتهي بدرج معتم يكاد يكون عمودياً، درج عارٍ من البلاط. مجرد اسمنت، هبطتا الدرج، وأحسّت خلود أنها ستبلغ أعماق الأرض السحيقة، سألتْ: ماهذا الدرج، أي ظلام هذا؟ كانت شادية قد كفّت عن الضحك وقالت: هنا يسكن فهمي في قبو العباسيين، كيف خطر لكِ أنه يمكن أن يسكن طابقاً في تلك البناية؟.

كان باب القبو يشبه أبواب الأكواخ الخشبية عتيقاً مشقّقاً وحين طرقته شادية بيدها، وفتح أصدر صوتاً يشبه الأنين، كانت خلود تميّز المكان بصعوبة، فقد هبطت فجأة من النور إلى الظلام، وأتاها صوت فهمي: أهلاً شرّفتِ ياخلود.

دخلت لاترى شيئاً، تلحق خطوات شادية، وبعد برهة ميّزت المكان، كانت شمعة صغيرة موضوعة على أرضٍ عارية من البلاط أمكنها أن تميّز شبه مطبخ، مجلى عتيق من حجر بني تحتفره فجوات كثيرة من القدم والاستعمال، حمّالة صحون، براد قديم لمحركه صوت عالٍ مزعج، الجدران عارية من الدهان، غاز من رأسين، وجرّة غاز كبيرة خضراء. كانت تتساءل أين أنا؟ دخلت وراء فهمي وشادية إلى غرفة تضيئها شمعة أيضاً، وليس فيها إلا طاقة صغيرة بمساحة وجه إنسان، مستورة بقطعة نايلون متّسخة، ثم فرشة وحيدة على الأرض مع وسادتين كبيرتين، ومكتبة عبارة عن ألواح خشب تمتد على طول الجدار وعرضه ممتلئة بالكتب، وفي الزاوية مسجلة كبيرة موضوعة على الأرض وحولها عشرات الكاسيتات، مرتبة بنظام، ولوحة وحيدة معلّقة على الحائط فوق الفرشة، صورة لشاب باللونين الأسود والأزرق، سألت خلود: من صاحب الصورة.

قال فهمي: إنه غيفارا...

خجلت خلود أن تسأل من يكون غيفارا خاصة أن فهمي أجاب بطريقة جعلتها تحس أن غيفارا شخصية عالمية، لايمكن أن يجهله أحد.

www.akhawia.net

رمت شادية حقيبتها على الفرشة، وجلست على إحدى الوسائد وتساءلت خلود أين سأجلس، استدرك فهمي وقال: لحظة ياخلود سأجلب لك كرسياً، عاد بكرسي من الخيزران ووضعه وسط الغرفة لتجلس عليه، وجلس فهمي على الفرشة إلى جانب شادية.

تساءلت خلود في سرها: أهذه غرفة؟ إنها جحر. أهنا يعيش الشباب الجامعيون المثقفون؟ أي بؤس غريب هذا؟ ورائحة عطنة تخنقها، فالشمس لايمكن أن تبلغ هذه الحفرة تحت الأرض. حاولت كبح مشاعرها بالاشمئزاز والغرابة، لكنّ فهمي ابتدرها قائلاً: لقد فضّلنا أنا وعقيل أن نسكن قبواً في ساحة العباسيين بدل أن نسكن في الضواحي البعيدة.

ردّت بابتسامة: هذا جميل؟؟.

جواباً قصدت به مداراة ارتباكها ودهشتها.

كانت تتأمل فلسفة العيش على الأرض، الفرشة، المسجلة، الكاسيتات، صحفة مملوءة بأعقاب السجائر. قال فهمي: على فكرة هذه غرفة عقيل، أما غرفتي ففي الجانب الآخر...

ضحكت شادية وهي تقول: في غرفة فهمي سريران وطاولة وخزانة ملابس...

ردّ فهمي: سرير لها وسرير لي.

حملقت خلود بشادية وسألت: أحقاً، هل تنامين هنا؟.

ردّت شادية بعفوية: ليس دوماً. فقط حين أتأخر عن موعد إقفال باب المدينة الجامعية.

شدّها فهمي من شعرها مداعبا: وأحياناً تتعمدين التأخر من غير سبب.

ردت ووجهها يتورد: وهل من سبب أقوى من كوني أحبك؟

كانت تتفرج غير مصدقة على مشهد مسرحي واقعي، ربما لو صادفته في مسرحية لقالت إنه غير واقعي، كانت تجلس قبالتهما على كرسي وحدتها، وهما أمامها على الفرشة الحقيرة، عاشقان صادقان حقيقيان، وهي ترفل بالقميص الحريري، وتنورة من الكتان الانكليزي وحذاء من جلد الأفعى يسجن قدميها. وشادية ببنطال الجينز الأبدي، والقميص المزهر، لكنها تعيش في العمق، وهي لا تزال في مرحلة أحلام اليقظة، وفهمي شاب مثقف جميل، يحرّك مشاعرها، ويجعل أنوثتها، تفوح بعطرٍ كثيف مميز، أوه القرنفلة البرية تنوء بثقل أريجها، فمن يتنشق رائحة القرنفل؟!.

قامت تتفرج على الكتب، تساءلت: كل هذه الكتب لعقيل؟

رد فهمي: معظمها.

استوقفها عنوان هل للإنسان مستقبل؟... حرّرت الكتاب من سجنه.

وأخذت تقلب صفحاته، سألت فهمي: هل تنصحني بقراءة هذا الكتاب.

سأل ما أسمه؟

قالت: «هل للإنسان مستقبل»؟.

قال: أنا لم أقرأه، لكن يمكنك استعارته لو أحببت.

تساءلت: أتعتقدان أن للإنسان مستقبلاً؟

www.akhawia.net

وحين التفتت لتسمع الجواب. كان العاشقان يتبادلان قبلة خاطفة، توردت شادية وسألت: ماذا قلت.

ردت خلود بمرح: لا شيء، لقد عرفت الجواب.

- جواب ماذا؟

- جواب سؤالي؟

-كنت أسأل هل للإنسان مستقبل؟.

ضحكوا من قلوبهم، وانتفض فهمي، يبحث في الكاسيتات عن كاسيت معين، قال لخلود: هل سمعت بشيفان.

قالت: لا...

قال بحماسة: إنه موسيقار ومغني كردي، درس في ألمانيا، كان صديقاً لمارسيل خليفة وحصل على دكتوراه في الموسيقا.

عثر على ضالته المنشودة، وانطلقت ألحان موسيقا صاخبة، سريعة الإيقاع، فجّرت آلاف الأمنيات في نفسها الخافية على الأحلام، قالت وقد أحست حرارة تسري في جسدها: هذه الموسيقا رائعة مع أني لا أفهم كلمة مما يقول شيفان...

قال فهمي: سأهديك هذا الشريط، بعد أن أسجل نسخة لي.

ردت بإمتنان: شكراً.

اقترحت شادية: أن يتناولوا القهوة في غرفة فهمي، دخلوا الغرفة المجاورة بعد أن اجتازوا شبه المطبخ، كانت الغرفتان متجاورتان كلتاهما مفتوحة على المطبخ. غرفة فهمي كانت أوسع فيها سريران وطاولة وثلاثة كراسي، وخزانة ملابس معدنية، لكنها عارية من البلاط، وطلاء الجدران أيضاً، أخذت شادية

تمسح الغبار عن الطاولة والمكتبة. وفتحت خزانة الملابس المعدنية وأخذت تتفحص قمصان فهمي القليلة، أخرجت قميصين من الخزانة وقالت: هذان القميصان متسخان سأغسلهما لك.

قال: اتركيهما الآن، فيما بعد.

قالت خلود ساخرة: تبدوان كزوجين.

ردت شادية: لا أظن أن حياتنا ستختلف بعد الزواج.

- ولم لا تتزوجان!

- لا نستطيع الآن، يجب أن نتخرج من الجامعة، ونعمل. على كلٍ نحن بحكم المتزوجين كما قلت.

تنبهوا لطرق الباب، قامت شادية لتفتح باب الكوخ، ولعلع صوتها مرحاً، أهلاً سعيد أهلاً رزان.

قدّمت شادية سعيد ورزان لخلود، التي نظرت باستخفاف من منظرهما البوهيمي، ومساطرهما الهندسية الطويلة، وتساءلت ساخرة: يبدو أن الجينز الأزرق يميّز الشلة كلها. كان واضحاً أنهما متحابان، لأنهما جلسا متلاصقين على أحد الأسرة، وكان بإمكانها الجلوس على الكرسي، كان سعيد محبباً خفيف الظل، له وجه جميل، لكنه قصير القامة أما رزان فوجدتها خلود شنيعة لدرجة مرعبة، وأذهلها أنفها الكبير الأشبه بجدار، وتساءلت كيف يحبها سعيد وهي تمتلك هذا الأنف المرعب؟ كانت تحس بفوقية وغرور عليهم بأناقتها وجمالها ومستوى معيشتها، لكنهم كانوا يتحدونها بحقيقتهم وسعادتهم رغم فقرهم بحريتهم التي لا تجسر أن تعيشها، أحست أنهم يستخفون من ثرائها التي ينفيها ويتركها كهيكل وحيد جميل.

www.akhawia.net

سأل سعيد: أما من شيء يؤكل؟

رد فهمي يوجد مجدّرة.

تأفف سعيد: كل يوم مجدّرة؟ واللّه تقرحت معدتي من المجدّرة لكن لابأس.

خرج ليعود بصحن المجدّرة مع قرصي بندورة، أحسته خلود طفلاً بريئاً.. وبعد أن رشفوا القهوة وهم يتناقشوا في فيلم ميديا وخلود تنصت مستغربة ثقافتهم الواسعة الواضحة في حديثهم.

استأذنت بالانصراف، ألحّوا عليها بالبقاء، لكنها أرادت الخروج، من باطن الأرض إلى سطحها، وحين وصلت إلى القسم المبلّط من المدخل أحست بدوار خفيف وكادت تسقط، أية مفارقة غريبة، بناية رائعة فخمة، وفي جوفها قبو حقير يضم الشباب الجامعيين المثقفين أليسوا هم النخبة؟ أو لا يُفترض أنهم النخبة، وصوّر لها خيالها أن سعيد ورزان يمارسان الحب في غرفة، وشادية وفهمي يمارسانه فوق الفرشة في الغرفة الأخرى، ولسعتها حمى المقارنة الحارقة، الغيرة والحقد صديقان، أحست بنار تحرق أحشاءها وازدادت نظرتها جموداً واحتراقاً، كانت تتساءل، تُرى أين أنا من هذه الشلّة؟ ومن سيضحك على من؟ أحست أنها تحقد عليهم واتهمتهم بالانحلال وفي الوقت الذي كانت تحس بسعادة خبيثة كونهم يتحدون هياكل جاهزة ويمارسون حريتهم تحت القشرة الأرضية، كيف تحس بالاعجاب والاحتقار معاً لهذه الشلة الجامعية المثقفة؟ وهل عقلها مصاب بالازدواجية؟ لماذا لا يكون رأيها كلياً إعجاب أو احتقار؟ ولكن أليس الرجل هو المستفيد دوماً؟ ماذا يخسر؟ والجامعيات الجميلات، المثقفات كيف ينقدنَ،

ويخترن هذه العلاقات بملء إرادتهن، وماذا لو غدر بهن الشباب، وتركوهن، ألا يصرنَ عاهرات، وضحكت فجأة وكأنها تكتشف تعبيراً طريفاً «جامعيات عاهرات»، ولأول مرة تتساءل ترى ما الفرق بين العاهرة والمتحررة في بلادنا، فالتي تبيع جسدها لتقبض مالاً تتساوى مع التي تسلّم نفسها لحبيب. عجباً لماذا تشتد الدوامة في أعماقها وما باله الدوار يصر أن ينزلها إلى القبو، ترى لماذا يشدها هذا القبو؟ ولماذا تكرهه في حين أن عينيها مصوبتان نحوه.

في سرها سمتهم شلة العاهرين، وانتابها غضب عاصف تجاههم وأخذت تكيل لهم كلمات الاحتقار والسخرية من لباسهم وبؤسهم وعلاقاتهم الجنسية التي لا يخجلون منها، منافقون: مدّعون، كلمات جوفاء، حرية، تحرر، حقوق المرأة، المساواة، ليست سوى كلمات ليفرّغوا كبتهم وأحقادهم، ويتوارون خلفها معتقدين أنهم شخصيات تقدمية، بينما هم جرذان يعيشون في وكر، ولامت نفسها أنها تورطت في علاقتها مع شادية، وتوقف ذهنها عند شادية وأحستها شيطاناً رجيماً، وصرخت بصوت أخرس: عاهرة، لا تخجل من الإجهار بعلاقتها بفهمي وكأنهما زوجان، وتعترف بصراحة أنها تتقصد التأخر عن موعد إغلاق باب المدينة الجامعية، كي تنام في حضنه، كي يمارسا الجنس، وذاك العاهر الآخر عقيل في غرفته، عالمٌ بكل شيء، لا يفصله عنهما سوى جدار، لعله يمارس الحب مع عاهرة أخرى، جامعية منحلة، فوق فرشته القذرة، كان غضبها قد بلغ ذروته وهي تقول شلة العاهرين أدعياء الثقافة، واكتسى وجهها بسحنة تشنجية، ولمع بريق معدني كامد في عينيها، كان حقدها مبطناً برغبتها

www.akhawia.net

الجنسية المكبوتة قوتان عنيفتان تصطرعان في داخلها، وفي لحظات معينة كان كيانها يتجانس ويتحوّل لعجينة الحقد السامة، التي تتمنى لو تسمم كل شيء، وتمنت لو تخنق هؤلاء المنحلين المدعين، وصور لها خيالها كيف تذلّهم، وكيف تضحك منهم هازئة وتقول لهم: ألا ترغبون بأكلة شهية، ألم تتقرح أمعاؤكم من السندويش المسخن، ألا تشتهون أن تلبسوا ثياباً أنيقة جميلة، أم أن الجينز الأزرق هو لباسكم الموحّد يا شلة المنحلين المدّعين، وقرّرت بحزم مقاطعة شادية، تلك العاهرة كما صارت تسميها وهي تكزّ على أسنانها، لقد احتلوا مساحة كبيرة من تفكيرها وأثاروا غضبها وسخطها لحد الانفجار وهاجت مشاعرها كأمواج بحر مسّه جنون العاصفة، فأخذت تزمجر وترتطم بجنون الصخر، ترى لما كل هذا الغضب؟ ومادلالته؟ لو كان الأمر مجرد احتقار واستخفاف، فلتدر لهم ظهرها غير مكترثة بسلوكهم وأفكارهم وحياتهم، أما هذا الانفعال الزائد حتى الفوران فهو مؤشر لأمور أعمق، ربما على الطب النفسي أن يتدخل ليوضحها، إنهم يتحدّونها بالتأكيد، بحريتهم، بعفويتهم بسعادتهم، يتحدونها لأنهم يؤكدون لها كل لحظة أنهم لا يَشكون من أحقادها الدفينة ولا يحقدون على الرجال، ولا يصارعون مجتمعاً وقيماً وعادات كل لحظة، إنها لا تكف عن هدر قواها الذهنية في حروب وهمية مع مجتمع يتمثل لها برجل متنفذ، وهي المرأة المسجونة، إنهم لا ينظرون بمنظارها، ماكان يغيظها أنهم ينظرون للحياة بمنظار وردي، كانوا سعداء متصالحين مع أنفسهم، يتحدّون غضبها وحقدها وعفّتها وعذريتها الزائفتين بابتسامة، بمجرد ابتسامة.

كان الصراع اللجوج في أعماقها يشتد أحياناً لدرجة تحس أنها ستجن، فتقول لنفسها فاقدة الصبر، فلأجن، على الأقل سأرتاح من ثقل مشاعري التي تعذبني كل لحظة، وفي النهاية كانت الدموع هي المتنفّس الوحيد، دموع التعب ترجوها أن تكف عن الغضب والغليان والحرب، كانت ترجوها أن ترحم نفسها، وكانت تلجأ إلى حضن خالتها، ملاذها الوحيد، نبع الحنان الذي لاينضب، كانت خالتها تمسح على شعرها وتُسمعها كلامها الرقيق، فتستمتع بنغمة الصوت الدافىء، وتغمض عينيها غارقة في نسمة من السلام، لاتهب عليها إلا في حضن أمها الثانية. وتبتلع دموعها إلى الداخل وهي تتساءل: هل أنا مريضة بالحقد أم أن ماأحسه طبيعي. بل هو الصح دوماً؟.

كانت تتمنى لو تبوح لخالتها بأفكارها وأحقادها، ولكنها كانت تتراجع في كل مرة، لأنها تحسّ بأعماقها أن خالتها الطيبة الرقيقة التي لم تحقد على زوجها، لايمكنها أن تفهم أغوار الحقد في نفسها، كانت تكتفي أن تتمتع بحنانها الخاص النابض بالحب، وحين كانت تناقش خالتها بأفكارها وبما تقرأه من كتب لنوال السعداوي، وإحسان عبد القدوس وتحدثها عن تحرر المرأة، وبوجوب تحطيم القيود، كانت خالتها تبتسم وتقول: هذه حماسة الشباب، كل الشباب يقول الكلام نفسه، ولكن عندما يكبرون يكررون سلوك أهلهم وأجدادهم.

فتؤكد لخالتها أنها ستظل تحمل هذه الأفكار مدى الحياة..

فتبتسم خالتها وتقول: سنرى يا خلود. كيف ستسير بك الأيام.

* * *

www.akhawia.net

كان القرار الذي اتخذته بالانقطاع عن شلة العباسيين عنيفاً وحاداً وقطعياً، ولم تكفّ عن تسميتهم في أعماقها شلة من العاهرين وأخذت ترسم بذهنها خططاً لتتهرب من شادية، حاولت تجاهلها في اليوم التالي في الجامعة، لكن شادية، اقتحمت أسوارها الوهمية وقدمت لها كتاباً لمورافيا عنوانه إمرأة في روما مع شريط كاسيت لشيفان، وقد حملتْ الصفحة الأولى للكتاب اهداءً مشتركاً، من شادية وفهمي إلى خلود، عربون صداقة ومحبة.

حرّك هذا الإهداء الصادق مشاعرها، فرقّت وندمت، وشكرتهما على الهدية الرائعة، وذابت فجأة كل أحقاد الليلة الماضية، وندمت كونها وصفت شادية بالعاهرة، وأخذت تتأملها بحنان، وقررت أنها ستهديها بنطالاً جديداً، ولو أصرّت شادية على الرفض، فاضت مشاعرها برقة وحب لا محدود تجاه هذين العاشقين النظيفين، واعتذرت لهما اعتذاراً صادقاً لم يسمعاه. انقلبت مشاعرها تماماً وفاضت نفسها بمشاعر التقدير والإعجاب بعلاقتهما، وتحولا من جرذين إلى رمزين للحب والحرية والكرامة، كانت قد ورثت طباع أمها في سرعة التقلب بين مشاعر متناقضة ونسفت بلحظة كل قراراتها في شأن قطع علاقتها بها، وفاض حنانها غامراً نحو شلة قبو العباسيين، وغيّرت لتوها تقييمها لهم فهم يمثلون الشباب المثقف الواعي، ويعيشون قصص حب أية جريمة تدينهم بها؟ بحق من يخطئون، والفتيات ينقدن إليهم بملىء إرادتهم ودون خوف وقلق، ولو أن الأمر تطلّب تقديم أوراق انتساب لتلك الشلة لما تردّدت لحظة، وانتشلتها شادية من

أفكارها وهي تقول: هيا اتّصلي بأهلك، لنحضر عزفاً رائعاً للفرقة الأرمنية في المركز الثقافي.

سألت: حقاً، متى؟.

ردت شادية: بعد السابعة مساءً، لقد قلت لفهمي أن يحسب حسابك ويحجز لك بطاقة دخول.

تأبّطت ذراع شادية تضحك وتمزح، والسعادة تتواثب في داخلها كعصفور سعيد في محاولاته الأولى للطيران: أين كان مارد الحقد مختبئاً في تلك اللحظات؟. وحين وصلتا إلى المركز الثقافي، وجو الشباب الجامعي يطفي على المكان حيوية وحماسة، سمعت صوتاً غريباً ينادي شادية، التفتتا حيث الصوت، لتريا شاباً أسمر، عيناه خضراوان صغيرتان تشبهان عيني شادية ممتلىء القامة، وسمعت صوت شادية تقول: هاي عقيل.

اقترب عقيل منهما، وتمّ التعارف التقليدي، وغير التقليدي حين تلامست روحاهما من التقاء عينيها الحالمتين السوداوين بعينيه الخضراوين انطلقت شرارة الإنجذاب لتوها، ولم يغب عن حدسها الأنثوي ملاحظة تأثيرها الصريح على عقيل، إنه منشدّ إليها بقوة.

جلس إلى جوارها في المركز الثقافي، ولأن للجاذبية مجالاً مغناطيسياً فقد ظلا متمغنطين بجاذبية حالمة وواعدة طوال فترة العزف الذي كان رائعاً ومحلقاً في أجواء رومانسية حالمة، وفي فترة الاستراحة القصيرة لم يغادر أحد من الحضور مكانه، كانوا ينتظرون باحترام وصمت مرور الزمن لمتابعة العزف، كان نور

www.akhawia.net

أحمر خافت يغمر القاعة ويلوّن الوجوه، وركّز عقيل نظرته في سواد عينيها وسألها: هل أعجبك العزف؟.

قالت: جداً.

كانت عيناه تحكي انبهاره بها، وسعادته بلقاءها، بالصدفة الرائعة التي وضعها القدر في طريقه. أحسّ أنها فتاته المنشودة، كانت بذرة الحب تنتش في نفسه. وعاد يسألها ليبقى على صلة معها.

- أأنتِ صديقة شادية منذ زمن طويل؟.

قالت: أنا أعرفها منذ سنتين، لكن صداقتنا حديثة العهد.

سأل: بضعة أشهر؟.

ضحكت ضحكة فتنته: لاأذكر، لكنها ابتدأت يوم استعرت منها رواية السأم لمورافيا.

ضحك وهو يردّد وراءها: رواية السأم لمورافيا.

قالت: أجل، هذه الرواية كانت سبباً في ولادة صداقتنا.

-جميل، إن لمورافيا فضلاً كبيراً، فهو سبب تعارفنا بأسلوب غير مباشر أيضاً.

ابتسمت للمجاملة اللطيفة.

سأل: هل تسكنين المدينة الجامعية.

ردّت بهدوء: لا، أنا أسكن في المزة الفيلات مع أهلي.

-أوه، الشارع الحالم الهادىء.

تساءلت: أحقاً تراه هكذا؟!.

- بالتأكيد، فهو يغص بالفيلات الأنيقة المحاطة بحدائق أنيقة.

أحسّت بكآبة مفاجئة، قالت: المكان ليس مهماً بحد ذاته.

سألها وهو يكتشف روعة تقاطيعها: ماذا تقصدين؟.

قالت: لاشيء، لكن ليس مهماً أن أسكن بيتاً فخماً، وأحس أنه يسجنني.

سأل وصوته يرق: هل يسجنك حقاً؟.

ردّت: أحياناً.

قال وخلايا دماغه تعشق ملامحها وصوتها: كلّنا مسجونون.

- مسجونون بماذا؟.

-في داخلنا مئة سجن.

تلاقت العيون بنظرة مشعة دافئة تحت الضوء الأحمر، داروها بضحكة، قال لها ضاحكاً: ماذا لو شاهدتِ قبو العباسيين.

فاجأته وهي ترد ببساطة: لقد رأيته.

قال مندهشاً: حقاً..

ردّت بعبث: ودخلت غرفتك، ورأيت مكتبتك.

بدا سعيداً وهو يقول: أوه. غرفتي الحقيرة.

قالت وهي تحس بغبطة أشبه بالدغدغة: حقارتها جميلة.

سألها: هل هناك حقارة جميلة؟.

- نعم، أتدري كيف وصفت غرفتك، إنها فلسفة العيش بملامسة الأرض، الفرشة على الأرض، المسجلة، العديد من الكتب، الكاسيتات، صحفة السجائر، الشمعة. أوه ماذا بعد.

كان لحوارهما موسيقا خلفية أشبه بالتغريد، إنها متعة الإنجذاب الخام الأولي، إنطلاق للشرارة التي لامست قلبي أدم وحواء.

www.akhawia.net

قال: إنه تعبير رائع، فلسفة العيش بملاصقة الأرض، لكن المهم أن تتجه العيون نحو السماء.

- أية سماء؟.

أحسّا بمتعة الكلمات، وماتخلقه من إغواء مبطّن... قال:

-الحرية، أليست الحرية هي السماء الحقيقية؟.

قال جملته بصوت مبطن ببحّة خفيفة، جعلت ارتعاشة مفاجئة تسري في جسدها كله.

قالت له شاردة: الحرية، أين هي؟.

- إنها هنا، وأشار إلى رأسه.

ضحكت وهي تقول: ماأسهل الكلام..

قطع حوارهما صوت فهمي يقول: سكوت، الفرقة ستعاود العزف.

* * *

البداية كانت رومانسة مميزة، تحت هيمنة ألحان الموسيقى الأرمنية، الفرقة المبدعة التي عزفت للمشاهير، ليستْ، شوبان، بيتهوفن، موزارت، لاحظت مدى ثقافة عقيل في الموسيقى الكلاسيكية إذ كان يحذر القطعة منذ بدايتها، وهي كانت تسمع هذه الموسيقى بأوقات متباعدة، دون أن تغوص فيها.

كيف يبدأ الحب؟ كم يحتاج لزمن كي تعلو شعلته؟.

لعله العاطفة الوحيدة التي لاتخضع لقاعدة، بل يحلو لها العبث بكل القواعد، وإذا كان البعض يعتقد أن الحب عاطفة تنمو رويداً رويداً كالنبتة الصغيرة تكبر يوماً بعد يوم. فإن حب عقيل لخلود كان برقاً، شرارة قوية، ولدت في نفسه معلنة بداية عهد جديد، عهد يصبغ حياته حتى نهايتها، كما صبغ الضوء الأحمر وجهيهما وهما يصغيان لألحان الفرقة الأرمنية، لماذا أحبها بهذا الجنون (أهي مجرّد تجسيد لفتاة أحلامه؟ إنه لم يضع يوماً ما مواصفات شكلية معينة لفتاة أحلامه، وقد اعتقد أنه أحب مراراً، لكن خلوداً مثّلت له سحر الأنثى فتنتها الطاغية. هل وقع أسير العينين السارحتين في المطلق هل تمنى أن يكون غريقاً في هذا المحيط الأسود، وينجو من الغرق بتعلّقه بالأهداب الكثيفة السوداء التي تشع بكهرباء الفتنة كلما اهتزت، أم أن جسدها البديع جعله يحسها آلهة جمال، ولكنه حين يحصُرُ ذهنه في بداية مشاعره، لا يفتكر سوى أنه يعشقها، وأن ابتسامتها كانت تجعل نفسه تضيء بألف لون ولون. لقد وجد نفسه يتعبّد في محرابها من المرة الأولى. هذا هو الحب العاصف ولم يَخْفُ حبه على أعز أصدقائه فبعد أيام كانت شادية تخبرها أن عقيلاً يعشقها، وتظاهرت خلود بالاندهاش، مع أن حدسها الأنثوي كان قد همس بأذنها أنه سيحبها، بجنون.

كانت مشاعر العبث في روحها قد نشطت إذ وجدت موضوعاً ممتعاً للتسلية، وخفق قلبها كأن حقدها وصراعاتها المزمنة قد وجدت متنفساً، إنه هو، لقد وضعه القدر أمامها أخيراً كانت تقول هذه الكلمات التي تنطلق من بين أسنانها المطبقة وهي تكّز على أسنانها مؤكدة أنه هو، هو موضوع الانتقام وحدثت نفسها واجدةً نقطة توازنها في جحيم أحقادها المزمنة على الرجال، «ليحبني كما

www.akhawia.net

يريد، ليعشقني، ليجن بي، لكنني سألهو، كما يلهو الرجل تماماً، سأكتشف لعبة الحب، تلك اللعبة الأبدية بين المرأة والرجل، وسأنتقم لأمي وخالتي، ولكل المسكينات ضحايا الرجال، ثم سأتزوج زواج مصلحة». وأخذت مشاعر معربدة تتقافز في أعماقها وهي تقول، مصلحة، مصلحة، وتذكرت خالها يوم حدّث أمها المنهارة التي كانت تصرخ مطالبة بالطلاق إكراماً لكرامتها الجريحة: لا تطلبي الطلاق، إياك، قد تستأثر زوجته الجديدة بثروته كلها.. وتقول أمها: وكرامتي..

ويطغى صوت خالها، ويقول: المصلحة، المصلحة..

كلمة حفرت عميقاً في دماغها وهي لا تزال فتاة صغيرة، نعم، ستجد أخيراً زوج المصلحة، أما عقيل فلتلهو وتعبث معه، في عاصمة تبتلع الملايين، وفي قبو حقير كقبو العباسيين، ومع شلة بائسة كشلة القبو.

كان بانتظارها في مقصف الجامعة، لمحته من بعيد، لكنها تظاهرت بتجاهله، وأخذت تتصنع الابتسام والضحك مع زملائها لتتركه يشبع عينيه من صورتها وحركاتها، إلى أن أتت شادية لتسحبها وتهمس بأذنها أن عقيلاً ينتظرها في المقصف، قالت لها متصنعة الدهشة: حقاً، تعالي، اجلسي معنا، فأنا لا أحب إثارة الأقاويل.

قالت لها: حسناً كما تريدين.

كان ينتظر عاشقاً، متلهفاً، وكانت تدرك بحاستها السادسة أنه دخل مجال جاذبيتها وأنه تمغنط، أو وقع في الفخ، هذه تعابيرها

التي تبرّد أحقادها، ابتسمت له ابتسامة جعلته يشعر أنها خاصة به، فيها دفء وتميّز خاصين.

قال لها: مضت ثلاثة أيام، لم أرك خلالها، أين كنت مختبئة.

ردت متخابثة: هنا، في الجامعة.

سأل: لِمَ لم تزوريني مع شادية.

ردت مازحة: لم أتلقَ دعوة رسمية.

قال بجدية: اعتبري أن دعوتك مفتوحة في أي وقت.

تابعت بالمزاح اللاهي نفسه: لكني أخشى أن أعطلك عن دروسك.

قال مؤكداً: حضورك أهم من دروسي.

شيء جميل أن يحبك إنسان، هذا ما قالته في سرّها.

كان ينظر إليها دون أن يرف جفنيه، كأنه منبهر بوجودها، بإشراقها، في حياته، قال لها: لقد تذكرتك البارحة في معرض الكتب، فاسمحي لي أن أقدم لك هذا الكتاب.

سألت: ما المناسبة.

مدّ لها الكتاب وقال خذي واقرئي الإهداء، ستعرفين ما المناسبة.

أخذت منه الكتاب وقرأت «مجنون السا» لأراغون، وقد كتب في الصفحة الأولى بخط يده الجميل والذي تراه للمرة الأولى:

المرأة مستقبل الرجل.

هكذا يقول أراغون.

وهذا ما أعتقده.

www.akhawia.net

ذكرى أول لقاء بيننا يوم عزفت الفرقة الأرمنية على أوتار قلبي بتاريخ ١٢/ ٦/ ٨٢/ .

تأثرت بالإهداء، شكرته، أحست بشاعريته ورقته، إنها معشوقة إذاً، ويريد أن يقول لها إنه يحبها كما أحب أراغون حبيبته إلسا، شكرته بأسلوب الأسر الارستقراطية. بصوت هامس وابتسامة مصطنعة، علّقت شادية للمرة الأولى قائلة: لم أرَ عقيلاً رقيقاً لهذه الدرجة من قبل. دارى عقيل خجله قائلاً: حقاً هل أبدو كذلك؟

قالت شادية ضاحكة: بل تكاد تذوب من الرقة.

تظاهرت خلود بالانزعاج وقالت: أوه شادية ما بك تبالغين هكذا.

استأذن عقيل بالانصراف، ليحضر دروسه في كلية الطب، توقف ونظر إليها برجاء قال: لن أمشي قبل أن تعديني بزيارة.

قالت: أعدك.

سأل: متى؟.

- لا أعرف تماماً.

- أرجوكِ، حددي موعداً.

- أخشى أن أصادف عندك شلة العشاق.

ضحك من تعبيرها. سأل: من شلة العشاق؟.

ردت ساخرة: أصدقاؤك وأصدقاء شادية وفهمي- كلهم ثنائيات عاشقة.

قال مفتوناً بها: تعبير جميل.

ودت لو تريه الجانب الساخر في نفسها لكنها قالت:

- ما رأيك أن تلتقي في الخارج؟.

- كما تشائين..

- ما رأيك لو نزور فهمي في وكالة الأنباء غداً عند الظهر، ستكون مفاجأة جميلة- ونظرت إلى شادية، أليس كذلك..

أكدت شادية: فكرة ممتازة.

أحست به كيف حاول إخفاء خيبته في لقائها منفرداً، لكنه تظاهر بالرضا وانصرف وهو يصارع مشاعر يأس كانت تلحقه كظله.

لقد سهر الليل حتى الفجر يصغي لأغنية المطرب الفرنسي جاك بريل(لا تتركيني)، يعيدها مراراً، يجلس على فرشته الوحيدة، يكتب قصائد لخلود. انتعشت موهبته الخاملة لسنوات وكانت رغبة ملحّة تنتابه وتترك نملاً في راحة يديه، تجعله يتمنى أن يدفن وجهه في شعر خلود الأسود الغجري، ويبكي، أن يبلل شعرها بدموعه، وأن يحكي لها كلاماً حلواً، لا يعرف مفرداته، لكنه يحسه جميلاً يعبر عن مشاعره، من أين أتته هذه الرغبة، وهو لم يشته إطلاقاً أن تتساقط دموعه من أجل امرأة، إنه يحسها نسيماً وضوءاً، لا يقدر على امتلاكه واصغى عشرات المرات لأغنية جاك بريل لا تتركيني، وتذكر كيف ثار على مقطع في الأغنية يقول: دعيني ظلاً لكلبك، واعتبر ذلك قمة الذل والإهانة، فما باله الآن يسكر بهذه الكلمات، ويعتبرها قمة في الحب والتفاني والروعة.

آما خلود فكان حقدها قد تحجّر وتصلب، وصار غير قابل للانحلال والذوبان، كانت منفية في وادي الظلام، تريد أن تعبث

www.akhawia.net

وتلهو، وتنتقم وتدمر، وتشعل حرائق، لماذا؟! لم تتساءل أبداً لماذا؟! فالحقد حين يحرق، لا يتوقف ليتساءل: لماذا لا أتحول، لحب، لخير، لجمال؟!.

التقوا في اليوم التالي في مكتب فهمي الذي يعمل موظفاً في وكالة الأنباء، كان يُعد مقالاً عن كتب الدكتورة نوال السعداوي.

ونشب خلاف حاد بين شادية وخلود، كانت شادية تصر أن نوال السعداوي حاقدة على الرجال، أما خلود فتستبسل في الدفاع عنها، وتعتبر أن كل كتاباتها واقعية تماماً، وحاول عقيل تقريب وجهات النظر، وجعل الحوار حيادياً وعميقاً، قال حاسماً النقاش: إن الكاتبة تناقش في كتبها واقع المرأة الحالي والماضي لكنها تدعو في النهاية للمساواة، والتمتع بنفس حقوق الرجل.

قالت خلود ساخرة: المساواة.

قال عقيل: أجل، يجب أن توجد أجيال ترسخ المساواة.

وتسلّم حقدها زمام المناقشة: عن أية مساواة تتحدث، الرجل لا يخسر شيئاً في بلادنا، لا عفة، ولا سمعة ولا عذرية، المرأة تدفع الثمن دوماً.

قال عقيل محاولاً امتصاص غضبها: ولكن هل تعتقدين أن رجلاً حراً يسعده أن يكون وضع المرأة مضطهدة ومظلومة.

رد حقدها مستفزاً: أجل يسعده، ولِمَ لا؟!.

لنفترض فهمي وشادية انفصلا مثلاً، ماذا سيخسر فهمي، أما شادية-ونظرت إليها لتراها تصغي إليها متعجبة من انفعالها - فستخسر مستقبلاً، واحترام الناس لها.

قال يستوعبها بحنان: ستكون خسارة فهمي فادحة، وهي خسارته لإنسانة مثل شادية.

ردت بانفعال: أوه عقيل، دعنا من كلام الكتب، وكأن فكرة طارئة قفزت لذهنها- قل لي هل تقبل أن تعيش أختك علاقة حب؟.

وضحك عقيل ثم انتقل الضحك لشادية وفهمي. أحست أنها في مأزق سألت: ما بكم تضحكون هكذا؟!.

قال فهمي: أنت لم تعرفي عقيل بعد، إنه يخلي غرفته لأخته وحبيبها.

اتسعت عيناها دهشة، وركزت سواد عينيها في خضار عينه اللامع ببريق الحب، سألته: أحقاً يا عقيل؟.

-أجل.

- وكيف تقبل؟!.

رد ببساطة:

- ما أقبله لنفسي، أقبله لغيري، وإلا أكون أكبر مدعٍ ومتبجّح.

وعادت لمنطقها الوحيد تتحدث: لكن أفرض أن حبيب أختك خذلها وتخلّى عنها.

رد ببساطة: تكون قد تعلّمت من تجاربها.

قالت غاضبة: في أي بلدٍ تعيش أنت، ألا تعرف كيف يقيّمون شرف الفتاة هنا، وخبطت بيدها على طاولة مكتب فهمي.

رد ببساطة: أنا لا يهمني تقييمهم.

www.akhawia.net

- ولكن أختك فتاة وستدفع الثمن .

- أختي لا تفكر بهذه الطريقة ، إنها تعيش الحرية ، وللحرية ثمن ، وإذا تغير حبيبها للأسوأ ، بالتأكيد سيكون هو الخاسر ، المهم أنهما يعيشان زمناً حلواً ، الحب لا يؤجّل يا خلود ، والحياة تُعاش مرة واحدة . . وهذه العلاقات الحرة بين الشباب هي التي ستغير المجتمع مع الزمن .

صرخت غاضبة : منطق رجال ، ودت لو تتابع ، شلة العاهرين . أي رجل هذا يترك أخته تضاجع حبيبها في غرفته ، لكنها أمسكت نفسها عند آخر لحظة ، فما كانت تريد لخيط زمام الأمور أن يفلت من يدها ، فكيف تنسى أنها تريد أن تلهو وتعبث وتنتقم .

اقترح فهمي أن يشربوا البيرة في مقهى قريب ، ليهربوا من النقاش السائر في طريق مسدود .

* * *

رفعت كأس البيرة وقد هدأت فجأة ، وقالت هازئة : في صحة الحرية . وشربوا معها نخب الحرية . . كان المقهى يطل على حديقة الجاحظ .

سألت شادية : هل ترغبون أن نتمشى في الحديقة؟ .

راق لعقيل الاقتراح ، سيختلي بخلود أخيراً ، تمشيا في الحديقة وقت الغروب ، كانت شادية تسير متأبطة ذراع فهمي أمامهم ،

اختار عقيل طريقاً آخر للسير فيه ، ليبوح لها بحبه ، ليقول لها إنها الفتاة الوحيدة التي أحبها .

قالت : لقد فاجأتني يا عقيل .

رد وسحابة حزن تمر فوق وجهه المتعمد بنور الحب : أحقاً فاجأتك؟ .

أما كنت تعرفين أني أحببتك من أول نظرة؟ .

- وهل تؤمن بالحب من أول نظرة؟ .

- لا لم أكن أؤمن ، لم أكن أؤمن بأشياء كثيرة ، لكني بعد أن عرفتك ، صرتُ أؤمن به ، أخذ يضحك .

سألته : لماذا؟ .

رد ونغمة الحزن لا تفارق صوته : وهل تسألين الشعلة الإلهية عن سر لهيبها؟

- أو تعتقد أن الحب شعلة إلهية؟

- أجل ، إن لم يكن شعلة إلهية ، فهو ليس حباً .

ودمعت عيناه من الوجد ، تمنى أن يدفن رأسه في صدرها في شعرها ، ويتنسم عطر أنوثتها ، ويقول لها أرجوكِ امسحي رأسي وباركيني ، أحبيني ولو قليلاً ، فأنا أعبدك .

كانا قد توقفا عن السير ، وعتمة الغروب تخفيهما ، أمكنها أن تلحظ عينيه الدامعتين شوقاً ووجداً ، وأحست أن منظره مضحك لكنها قالت متظاهرة بالاهتمام والقلق :

- لا أعرف ماذا أقول ، أنا خائفة .

www.akhawia.net

أمسك يدها واعتصرها، قال: لا تخافي أبداً وأنت معي.

هل كانت خائفة حقاً؟ كانت أبعد ما تكون عن الخوف، كانت تفكر في المرحلة المقبلة، ترى كيف سترسمها وتهندسها، الأمر يحتاج لتخطيط ودراسة، وليس عشوائياً كما كانت تظن، ولكن فليُمهلها لتخطط للعبة، وقبل أن تطلب منه مهلة للتفكير قال لها: سأسافر غداً إلى القرية، لأحضر خطبة أخي، لن أغيب سوى يومين، سأعود لأسمع ردك يا حبيبتي.

قالت: اتفقنا.

تجرأ وقبّل يدها قبلة نهمة، ابتسمت وهي تستمتع أن تكون معبودة ومعشوقة لهذه الدرجة، وأخفت العتمة نظرتها الباردة الساخرة التي لا تحمل ذرة من عاطفة.

كان سفره محنة حقيقية بالنسبة إليها. ليس لأنها افتقدته إطلاقاً فشخصه لم يكن مُهماً بحد ذاته، إنها الآن على شفير الهاوية، كما كانت تنتظر دوماً أن تعيش، وكان قلبها يطرق بعنف كأنها مقدمة على أمرٍ خطير وحاسم، إن الخيال يمكن أن ينقلب لحقيقة، بلحظة، بومضة وبشكل مفاجيء، فها هي الحالة الحاقدة التي تبحث عن متنفس لأحقادها عن مجرد طاقة صغيرة تنفلت منها مشاعرها المختنقة، تجد نفسها فجأة وباب التجربة مفتوح على مصراعيه يُغريها ويُناديها. فهل تستجيب؟ آه عجباً، هل تفرّط بحصانة سنوات شبابها، والقيم والمُثل والشرف والأخلاق التي تنفستها مع الهواء، أتغامر بها؟ ولكن أية قيم هذه؟ وأية أخلاق؟ أخلاق ذكورية سنّها الرجال لمصالحهم، ولنزواتهم، والمرأة منفية

مقصية. ذليلة، أتحافظ على قيم ذكورية، ولماذا الجنس امتياز للرجل. وعارٌ للمرأة؟ إلا إذا دخلت القفص، القفص الزوجي، لا، لا، صدرت من فمها بصوت مرتفع، وتلفتت حولها خوفاً أن تكون أمها وخالتها قد تنبهتا إليها، لكنهما كانتا مندمجتين في المسلسل اليومي الأبدي الذي يعالج تعدد الزوجات، وتصدّع الأسر.

خرجت إلى الحديقة الغربية للمنزل الأنيق، ترشف بقايا قهوة من فنجانها، وتفكر بما تعمله، وبما ترغب به، وتساءلت: هل أحبه؟ لا إطلاقاً، إن الحب ليس وارداً عندها، لكنه يعبدها، ويريدها حبيبة، فكيف ستلهو بمشاعره لمجرد اكتشافها لعبة الحب، لمجرد فضولها في اكتشاف الرجل في الزمن الذي تحدده. هي، وخارج الأوراق الرسمية. نعم، هذا تماماً ما تريده، اكتشاف الرجل كمحظور، كممنوع، كجنس، ودون إذن منهم حماة الشرف المنافقين: العاهرين، وبعد الاكتشاف تأتي خطوة زواج المصلحة. ولكن.. كانت قلقة، عليها أن تمثل أنها تحبه، لأنها لن تقدر أن تبوح له بحقيقة نفسها أبداً، وما هي دوافعها، وماذا يعتمل في أعماقها، وابتسمتْ ابتسامة تعمّدتها ماكرة وقالت: سيتغيّر المألوف، وستلهو فتاة بشاب متيّم ولِمَ لا، وعادت قصة خالتها تلحّ بذهنها، وأحسّت بنقمة عارمة، على زوجها الذي دمّر حياتها وتركها مرتعبة من الجنس ومعزولة، غير قادرة على خوض تجربة جديدة، بين المرأة والرجل حرب، حرب تتستّر بالحب. أجل هذه هي الحقيقة كما أقرّت بها أخيراً، بل آمنت بها وتمنّت لو تبشّر بها.. وداهمها شعور مفاجيء، أنها وحيدة حتى العظم،

www.akhawia.net

فأبوها غارق في مشاريعه الهندسية، وأمها مشغولة بنشاطاتها الاجتماعية وخالتها تغمرها بحنانها، لكنها لاتعرف جحيم أحقادها، وأخوها في مدينة الضباب، غربة طويلة كالموت، وهي على وشك خوض تجربة الجسد وبعد يومين ستلقاه، ترى كيف هو في عمقه، في قبوه، وقد تعرّى، وقد تعرّت، آدم وحواء وتفاحة الشهوة المحرمة، جوع الجلد صعب، وحين يتيقظ يصعب إسكاته، ولماذا تسكته، فلتخض التجربة بالطول والعرض، كانت شرارة نشوة تسري في جسدها، تعدها أنها ستلمس أخيراً بيديها، بحواسها، كل الممنوعات، وأنها ستعرف عن كثب برودة ماء البحر وملوحتها، وستغرق فيها، بعد أن وصفوها لها طويلاً. دون أن تغمرها!

* * *

لقد رجحت الكفة أخيراً إلى إشباع الجسد، أرادت أن تعوم في الملذات، وتتمثلها، لاأن يصفوها لها، وتراها على شاشة السينما أو التلفاز، وتذكرت كيف كانت تغبط الممثلات في بدء مراهقتها، وللحظات كانت تحس أن التمثيل هو الإنصاف الوحيد للمرأة، فيه تعيش القبلة والحب واللمسة والحرية. لكنها كانت تعرف نظرة المجتمع للممثلات، نظرة أقرب للاحتقار، كأنهن عاهرات، لكن عاهرات محبوبات، كل رجل مستعد أن يستبسل ليحظى بإحداهن، لكنه أمام المسرح الاجتماعي يتظاهر بالنبل والشرف،

وبأنه يقدّس زوجته، في حين أنه وهو في أشد اللحظات حميمية مع الزوجة يتخيّل إحدى الممثلات الفاتنات.

سيرجع عقيل غداً، ويجب أن تقبل حبه، وتوهمه أنها تحبّه، فهو الطريق الوحيد لخوض التجربة، لاكتشاف اللذة المحرّمة، كانت سعادة خبيثة تعربد في داخلها، تغريها، آه، ماألذّ العيش على حافة الخطر، وتنبّهت لفكرة خطيرة، وقالت لنفسها محذّرة: يجب أن تظلّي عذراء، وزمجر غضبها الدفين يتساءل بسخط: ماالغاية من غشاء البكارة؟ ولماذا وجد؟ وأحسّت أن الطبيعة ضد المرأة أيضاً، وإلا لما وُجد هذا الغشاء التافه، الذي يفصل بين العفة والدعارة الشكليّتين، بين الأبيض الأسود، بين الموت والحياة، وخطر لها لو تتحكّم بالعالم يوماً واحداً فقط، ستصدر قراراً وحيداً هو تمزيق غشاء البكارة في اليوم الذي تولد فيه الفتاة، ولتكن هذه العملية معادلة لعملية الختان عند الصبي، وفي حمّى غليانها قالت: سأميتك ياعقيل، وسترى أية فتاة هي خلود.

بلغ قرارها مرحلة التنفيذ، وقامت تعدّ العجينة لنزع الأشعار الرقيقة عن ساقيها، يجب أن تخلبه بجسدها، بطراوته ونعومته، أخيراً سيتم لها ماأرادت، لو عصرت ذهنها في تدبير خطة انتقامية لما أفلحت، وهاهو قبو العباسيين يغريها أن تغور إلى باطنه لتكتشف المحرمات، وتتحدّى مشرّعي قوانين الشرف، والمدافعين المنافقين عن العذرية، تحت قشرة الأرض ستستمتع وتغوص في أعماق مشاعر أنهكها افتعالها ومحاولة الغوص فيها واستبطانها، قبو العباسيين الحقير سيحميها، ستدخل بناية ضخمة يزيد عدد

www.akhawia.net

شققها علي الثلاثين. مَن سيحزر إلى أين تتجه فتاة جميلة في وضح النهار؟. لن تثير شكوك أحد، حتى لو التقت بإحدى الجارات أو المعارف أو الأقارب، ستقول وابتسامة واثقة على شفتيها أنها ستزور صديقة لها، ولكنها ستنزل ذلك الدرج العمودي المعتم، لتدخل قبو اللذة المحرمة.

* * *

حضر عقيل أبكر من موعده بنصف نهار. كان قد وعدها أن يصل دمشق الرابعة بعد الظهر، وفوجئت أنه ينتظرها في مقصف الجامعة في التاسعة صباحاً، فقد سافر ليلاً بعد انتهاء خطبة أخيه مباشرة ليصل دمشق في الصباح الباكر، ويتجه مباشرة إلى الجامعة.

كانت مفاجأة غير سارة أن تراه ينتظرها في الجامعة، لأنها لاتريد إثارة الشبهات، تريد الحفاظ على القشرة والشكل، تريد المصالحة الظاهرية مع المجتمع، أما تجربتها فستعيشها في السر.

حيّته ببرود، ولاحظ انزعاجها من نظرات الفضوليين، وعرفت من احمرار عينيه أنه لم ينم، قالت له برقة مفتعلة:

- اذهب الآن ونم، وسأمر بك بعد الظهر.

قال متلهفاً: لماذا، سأنتظرك، حتى تنتهي محاضرتك.

قالت بحزم: أرجوك ياعقيل، يجب أن أكون طبيعية، سأتغدى في البيت مع أهلي، وسأكون عندك حوالي الرابعة.

قال مذعناً لإرادتها: سأنتظرك.

قالت: أتمنى ألا أصادف أحداً من رفاقك. وضحكت، شلة العشاق.

قال: سأطردهم كلهم.

قالت باسطة شروطها: حتى فهمي وشادية، لاأريد أن يكونا.

قال: حسناً، كما ترغبين.

وقبل أن ينصرف قال: هناك مفاجأة تنتظرك.

سألت بلا مبالاة: ماهي؟.

قال: إذا قلت لن تعود مفاجأة.

قالت: حسناً أرجوك انصرف الآن.

تأملت قامته الطويلة وهو يبتعد، كانت تتأمله بعين الشهوة كما يتأمل شاب فتاة يرغبها، وأحست بسعادة، وهي تمارس حرية الاشتهاء للمرة الأولى.

* * *

كانت السيارة تنطلق بها إلى ساحة العباسيين، ودّت لو يطول الطريق، أوتتوه، لكنها كانت متيقّنة أنها مقدمة وشيكاً على تجربة الجسد التي انتظرتها طويلاً، كانت مشوّشة مضطربة وأطرافها باردة، وراحتاها تتعرقان بعرق الخوف. وأحسّت وجهها شاحباً وأمكنها أن تسمع صوتاً نحيلاً في أعماقها يرجوها أن تثني عزيمتها

www.akhawia.net

عن المضي في هذه التجربة، لكنها لم تستجب، لامفر من مشيئة القدر التي هي مشيئتها منذ زمن بعيد، وصارت تحدث نفسها، تشجعها: لماذا الجنس حرام خرج الأوراق الرسمية؟ وحلال بعد إمضاء بعض الأوراق؟ ومن يضفي الشرعية على حياتنا وسلوكنا؟ ولماذا حين نبتعد عدّة كيلومترات تتغيّر الأخلاق. تُرى أما من قيمة مطلقة للأخلاق يجب أن تظل ثابتة باختلاف البلدان والأزمان؟ ولماذا على المرأة أن تقيّم دوماً بعذريتها؟ وانتفض حقدها اللابد في أعماقها كلبوة شرسة، وقالت بتصميم: لا لن أتراجع، كانت منفعلة بمشاعر شتى من غضب وخوف ونقمة وتشتّت، ماعدا شعور اللذة، فحب الاكتشاف والتحدي هما هدفاها الأساسيان، أما عقيل فكان غائباً من ذهنها، فهو مجرد وسيلة، ولم تشعر أبداً بشخصه في فرادته واستقلاليته، وعجزت عن خلق أي شعور جميل في أعماقها تجاهه. من إعجاب أو حب. وتساءلت وعيناها تتابعان البنايات العالية المتراكضة بسرعة السيارة. أتراني غير قادرة على الحب؟ وابتسمت ساخرة: هذا أفضل، وتخيّلت عقيل في جحره والفرشة الوحيدة على الأرض، والمرآة المستندة على الأرض، والكاسيتات، الكتب، وصحفة السجائر، وفلسفة الحياة بملاصقة الأرض، وتخيّلتْ كيف سيغور الانسان تحت الأرض عدة سنتمترات وينتهي، وكأنه لم يوجد في زمنٍ ما...

وتخيّلت الأرض تنشق وتبتلع الفرشة الوحدة، وهي وعقيل متمدّدان فوقها الموت نهاية كل شيء، وزادها الموت قناعة بوجوب خوض تجربة الجسد وممارسة الحب كتحدٍ للموت، وأحسّت بالرعب ينمو بداخلها وهي تفتكر أن الموت قريب جداً، ويمكن أن

يختبىء تحت الفرشة: وعجبت كيف يكبت الإنسان مشاعره وأحاسيسه ويعيش سنوات قحطٍ وحرمان، والموت قريب منه لهذه الدرجة المذهلة؟ أليس الموت بسلطانه وغدره أكبر عذر لها للعيش كما تحلو وتشتهي؟ . وفجأة اقتحم تفكيرها شعور طاغٍ بالشفقة على عقيل، لكأن صوت في أعماقها يقول لها: مسكين إنه يحبك، فلماذا تخدعينه، وصرخ حقدها صرخة خرساء: إنه سيتمتع بجسدي، فليحبني، سيقبض ثمن عواطفه وحبه، وهل كان يحلم أن يحصل على فتاة مثلي. بجمالي ومركزي الاجتماعي، أتنازل وأزوره في جحره، وارتسمت صورة أمها المنهارة أمام فضائها المشوش، بصور متسارعة متلاحقة، وعاد الماضي حياً ينحرها، ويذكّرها بخلود ابنة ثماني السنوات، يوم فتحت باب الحقيقة لتكتشف المأساة، انهيار أمها. غيابها في مستشفى الأمراض العقلية، وسكوت الاكتئاب الذي لازمها طويلاً. وكزّت على أسنانها وحقدها في ذروته وقالت: لن تسحقوني ياكلاب، سأعيش في السر حريّتي وكما يحلو لي، ثم سأضحك عليكم وأتزوج زواج مصلحة، كانت تحس أنها تخاطب رجالاً وهميين يمثلون لها المجتمع بقوانينه الذكورية الظالمة، وانقطعت أفكارها فجأة بتوقف السيارة، وصوت السائق يقول لها: ساحة العباسيين. فتحت الباب ونزلت، وحين لامست رجلها رصيف الشارع أحست أنها تهبط من علٍ، مشت باتجاه البناية الفارهة كالمسيّرة، وتأمّلت بعينيها الواسعتين الفسحة الواسعة المبلّطة بالرخام، والزاوية العتيقة المخيفة وراء المصعدين،

www.akhawia.net

نزلت الدرج المعتم، ورغبة حادة بالبكاء داهمتها لم تعرف لها تفسيراً، أحسّت أن دموعاً غزيرة محتبسة في أعماقها تود لو تفيض غاسلة أحقادها، لكنها سارعت بقرع باب القبو الخشبي لاجمة عاصفة البكاء الموشكة على الهبوب، فتح الباب عقيل، كان يرتدي بنطال الجينز، وصدره عارٍ، أحسّت بصدمة باردة، كأن جسمها الدافىء ارتطم فجأة بمعدنٍ بارد، أهي صدمة الرغبة؟ اتجهت إلى غرفته، كانا صامتين وحيدين والشيطان ثالثهما!!.

انتابها شعور عابر أنها متورطة، وترغب بمن ينتشلها، لكنها دارت ارتباكها بتظاهرها أنها تبحث عن شريط كاسيت معين. انحنى عقيل إلى جانبها وأزاح شعرها الغجري عن وجهها وطبع قبلة ناعمة على خدها، فسرتْ قشعريرة في جسدها، دارتها بابتسامة، قال لها: لقد اشتقت إليكِ كثيراً.

كانت متوترة كادت أن تقول له: هيا أسرع، تعال نتعرى ونمارس الحب، أود أن أنهي اكتشافي بسرعة، ولكن عليك أن تحترم عذريتي المبجّلة فهي أهم مافي وجودي، لكنها وجدت نفسها ترسم تلك الابتسامة القلقة البلهاء.

سألها: مابكِ ياخلود تبدين مضطربة؟.

قالت: إنها المرة الأولى التي أزورك فيها، والبيت خالٍ من الأصدقاء.

قال: إذا كنت متوترة وتفضّلين الخروج فأنا رهن إشارتك.

ودّت لو تقول له: أتخرج ياأحمق، أنا هنا بهدف تجربة انتظرتها طويلاً. وأنت المفتاح أو الأداة.

كان قد وضعها في مأزق بجملته هذه.

قالت: لابأس، لنبقَ هنا بعيدين عن أنظار الفضوليين.

قال لها: يبدو أنك تخشين أقوال الناس ياخلود.

قالت: أجل، ألا يقال، داروا سفهاءكم.

قال: لكننا متحابان، والحب ليس خطأ.

أحسّت بغثيان حين قال متحابان، ودّت لو تفرد ملامحها الحقيقية في تلك اللحظة لكنها ابتسمت وقالت متصنّعة أنها تبادله أشواقه:

- دعنا الآن من هذه الأحاديث.

ربت على خدها بحنان وسألها: ماذا ترغبين أن تشربي؟.

ردّت بعبث وكأنها تود أن توجه الزمن باتجاه اللحظة المنتظرة سألته: أعندك نبيذ؟.

ضحك وهو يقول: عظيم، من يشرب نبيذ الساعة الرابعة بعد الظهر إلا العشاق.

ضحكا، واتّجها إلى شبه المطبخ، كان يطوّق خصرها النحيل بذراعه ودّت لو تنكمش مبتعدة، لكنها أمرتْ نفسها أن تذعن، وألا تقوم بأي تصرف يُخلّ بالهدف المرتجى، لاحظت أن المطبخ الحقير نظيف ومرتب، والصحون مجلوّة.

سألت: عجباً، المطبخ نظيف جداً؟.

قال: قضيت ساعتين أنظف البيت، لأن حبيبتي ستزورني.

هاجت دموعها ثانية، تأملت ظهره العاري بحنان، قالت بشفقة: إنه عاشق، ولكن مابالها ترق فجأة، طردت شعورها

www.akhawia.net

المباغت الحنون، ورجع الحقد سيد لاموقف، سكبا النبيذ الأحمر وهما يجلسان على الفرشة، متلاصقين يرشفان النبيذ، ويقرزان اللب الأبيض سألها: خلود: هل اشتقتِ لي؟.

ردّت: أجل، كانت تعرف أنها تكذب، لكنها مستمتعة بلعبة الكلمات سألته: وأنتَ؟

أمسك يدها، وقال: لم تغيبي عن بالي لحظة واحدة، أنا أعبدك.

سألته: ما المفاجأة التي أحضرتها لي؟.

قال: احزري.

- أوه لا أحب أن أتحزّر، هيا قلْ لي.

قام وأحضر كتاب عشيق الليدي تشاترلي لديفيد لورانس.

قالت مبتهجة: فعلاً مفاجأة رائعة، ولكن.

قاطعها: عرفت من شادية أنك تفتشين عبثاً عن هذا الكتاب.

- وأنتَ كيف حصلت عليه؟

- لقد وجدته في بيت صديق لي، وأخذته منه عنوة.

- هل قَبِلَ؟.

- لقد هددته، إما صداقتنا وإما الكتاب.

- ألهذه الدرجة؟

تأملها بعينين تبرقان بطبقة دمع رقيقة، قال: بل أكثر من ذلك لو تعلمين كم أحبك؟

سألها: هل تأكلين، لقد حضّرت لك بنفسي رزاً بالحليب، إنه مغذٍ.

- لكنني لست جائعة.

- خلود، أنت نحيلة، يجب أن تأكلي جيداً.

ردت بغنج مستعجلة زمن الاكتشاف: أوه عقيل، قلْ أنك لا تحب قوامي.

كانت هذه الجملة بالطريقة التي لفظتها بها كافية لتجعله يترك كأس النبيذ، وينتزع كأسها من يدها، ويعتصر خصرها، وهما يتمددان على الفرشة الوحيدة، شهقت وهي تحاول إبعاده، لكنها أمرت نفسها أن تطيع، فها قد حانت اللحظة، أتت ساعتها التي انتظرتها طويلاً، دفن وجهه في صدرها، وأخذ يطبع قبلات لاهثة مرتبكة على عنقها، أحست بثقل جسده، وشمت رائحته الخاصة الممتزجة برائحة الدخان، كانت تفكر بفستانها الحريري الذي يمكن أن يتمزق ويتجعد في عراكهما الغريزي، ما كانت تحس بأي تعاطف أو انجذاب أو شهوة، كانت تتأمل المشهد البانورامي في المرآة الجانبية المقابلة للفرشة، تركته يفك أزرار فستانها وانتفضت فجأة لتعلّق الفستان الثمين بمشجب عتيق في زاوية الغرفة، وعكست المرآة صورتها بثيابها الداخلية، وأحست برضى بالغ وهي تدرك مناطق الاغواء من انسياب خطوط جسدها البديع، رقدا معاً عاريين تحت الشرشف الباهت الرقيق، كان النبيذ قد جعل أطرافها تدفأ قليلاً وساعدها على أن تخفف من تشنجها المتصلب، وفيما كان يداعبها ويزرع جسدها بالقبلات، كانت تداعب شعره وكتفيه مستجمعة ما تختزنه ذاكرتها من صور أفلام وقراءات غرامية تظاهرت أنها مندمجة معه في اللعبة، ولم تتمالك

www.akhawia.net

إلا ونظرت في ساعتها لتعرف كم مضى من الزمن؟ وكم يستغرق فعل الحب؟ كانت تتعجّل النهاية لكنها صرخت به فجأة متذكرة شرف عذريتها أو عذرية شرفها، تُرى ماالفرق؟ كانت تتأمل في المرآة نهديها الأشبه بقبتين من فضة وتذكرت أشعار نزار قباني والكلمات الحلوة الرقيقة التي يصف بها النهدين، وتذكرت عشرات الصفات التي وصف فيها نزار النهد، هذا ماكانت تفكر به، في حين كان هو يتعبّد جسدها، يحترق في لذته الانعزالية، وكان يهمس لها مراراً أنه يعبدها، ويحبها بجنون، لم يشعره أبداً، ولن يشعره إطلاقاً.

سألته بسخرية مبطّنة: وكيف تتنبأ بالمستقبل؟.

قال: الحب الكبير يأتي مرة واحدة في الحياة فقط.

ودّت لو تقول له أنها لا توافقه الرأي، لكنها وجدت أن من العبث قول أي شيء، وأن غايتها تحققت أخيراً واختبرت لغة الجسد، أو لغة الجلد، وأدركت أن حواراً رائعاً يمكن أن يولد من تماس الجلد، وأكّدت لنفسها أنها ستترك نفسها تستمتع بهذا الحوار المتناغم في المرات القادمة، كانت تنظر لصورتهما في المرآة، وقد استكانا متلاصقين يغطيهما الشرشف الباهت، أمكنها أن تلمح شبه ابتسامة ظفرتلوح على وجهها، لكن خيبة أمل مُرّة أحستها تتسلل إلى جسدها، وتحس بطعمها المر اللاذع، وأقرّت بيأس، أنها لم تشعر بشيء، ولم تعرف ماهي اللذة التي يتحدثون عنها وأن كل الحركات واللمسات كانت مفرّغة من المعنى، وأنها نظرت مرتين في الساعة وهما يمارسان لعبة الحب، ففكرت بفستانها

الحريري أكثر مما فكرت به كشخص له كيانه واحترامه، وأخذت تنصت لأصوات الأطفال في الخارج، الحياة مستمرة وهي ترقد عارية إلى جوار رجل توهمه أنها تحبه كي تخوض تجربة الجسد، وتعرف ماهو الرجل أو ماهي أعجوبة الجنس؟. وركّزت وعيها في مساحة التماس بين جسدها العاري وجسده، وقارنت نعومة جلدها وطراوته، بصلابة عضلاته، وبالأشعار التي تكسو جسمه، كان مغمض العينين من النشوة، وقد أحاط كتفيها بذراعه وعادت فكرة الموت تلحّ عليها، وتمنت بقوة لو تموت، تُرى ماعلاقة الجنس بالموت؟ كانت منشدة بثقل جسدها للأرض، وأحسّت أنها مشلولة وعاجزة عن الحركة، وانعصر قلبها بألم حاد، وهي تقول آه كم أشتهي الموت. وأغمضت عينيها كأنها تهرب من واقع تجربتها، وكأنها تلغيها، ليتها تكون مجرد خيال، كآلاف الخيالات التي كانت تتخيلها، لكنها واقع، طعم المرارة واليأس، ورائحة الجنس، تؤكد أنها واقع.

حين فتحت عينيها كان عقيل يحدّق إلى وجهها بحنان بالغ، وجهه يذوب عاطفة، وانفجرت بنوبة ضحك عصبي توتري، لم تعرف كيف تتحكم به، وأخذ الغطاء يهتز فوق جسدها المرتجف بنوبات الضحك، وسالت دموعها، وغطّت وجهها بالمخدة، وهي ترتجف بقوة هذا الضحك الهستيري، وقف عقيل مبهوراً وسألها، مابك؟ لم تكن قادرة أن ترد. كانت تضحك وتبكي معاً، هزّكتفها العاري وسألها برقة: خلود، مابكِ؟.

كانت دموعها تنسكب مبللة المخدة. واختلاجات الضحك تتناوب على جسدها. كأنها مصابة بمس كهربائي، أحس أنه مطعون في رجولته، وقام يرتدي ملابسه، وخرج من غرفته ليعد

www.akhawia.net

القهوة، وحين رجع كانت قد لبست ملابسها، وجلست عند طرف الفرشة تبكي بصمت دموعاً سخية.

اقترب منها، وركع إلى جانبها، قال لها بصوتٍ يفيض عذوبة:

- خلود، أرجوك، لاتشعري بتأنيب الضمير، فأنا أحبك كثيراً ونحن لم نخطىء بحق أحد، الحب ليس جريمة ياخلود.

طنّت هذه الجملة في أذنيها، أهو تأنيب الضمير الذي تحسّه؟ كلا. كانت متعبة لدرجة أحست أنها لن تقدر أن تقوم وتصعد الدرج وتمشي، بل ستظل متكومة هكذا، تبكي حتى النهاية، كانت مشوّشة لدرجة لم تكن تعرف هل تشعر بشفقة على عقيل أم أن أحقادها بدأت تبرد بلذة الانتقام، أم أن بذرة حب كانت تجاهد لتنمو وسط أحقادها.

رشفا القهوة بصمت، كانت الساعة تقترب من السابعة، أراد أن يوصلها إلى منزلها، لكنها رفضت، قالت له: سأذهب وحدي. قبل أن تغادر باب القبو أمسك يدها، وقال لها: خلود ثقي بي ثقي بحبنا.

ردّت على كلامه بنبرة ضبابية، أطرقت وهي تقول لنفسها، ماذا لو عرف حقيقة أعماقي، ماذا لو عرف الحقيقة، حقاً إن الحقيقة مرعبة أحياناً، بل مدمّرة.

توقعت أن توقف أول سيارة تصادفها، لكنها وجدت نفسها تسير على غير هدىً متأملة الناس، والبنايات والأشجار، كان

ذهنها مغارة سحيقة يُصفر فيها هواء الفراغ، ما كانت تحس بشيء على الإطلاق، ولم تحتفظ ذاكرتها بأية صورة من صور لعبة الحب والاكتشاف. تساءلت أهكذا تكون النتيجة خواء وفراغ وخيبة أمل أقرب لليأس، واللون الرملي المحايد يلفح كل شيء، أفكارها والناس والطبيعة، أحست أنها تحكي للناس كلهم عن تجربتها وهي تنظر إليهم، وابتسمت وهي تتساءل: هل يعيش الناس تجارب جنسية مماثلة لتجربتها؟ كفّت عن التساؤل، كانت أحزانها تحلّق رقيقة شفافة، تحيطها بوشاح، وتلتقي مع ألوان الغسق التي أحبتها دوماً، وتتآلف معها هاربةً من وحدة كثيفة متعاظمة في روحها، لم تعرف أنها استغرقت ساعة كاملة في المشي، وها هي تصل للطريق المتجهة مزة فيلات، ولمحتْ بيتها، ورأت بعين خيالها أمها مستلقية على الأريكة تتابع بملل برامج التلفاز ووالدها يقرأ جرائده المفضّلة، ويفكر بين حين وآخر بأزمة العنانة التي ألمّت به، وخالتها تطرز أغطية رائعة لسريرها الزوجي. وليوم زفافها الذي تعلق عليه العائلة الأحلام والآمال، إنهم مستقرون ذلك الاستقرار الذي تعتقد أن مصدره عذريتها.

انزوت في غرفتها متحاشية الكلام مع والديها وخالتها، مدّعية التعب والإرهاق، وخابت توقعاتها أنها ستقلق الليل كله، ولن تنام، فما أن اندست في الفراش حتى غرقت بنومٍ عميق، لكنّها أفاقت عند الفجر على كابوس مرعب، ولسانها ملتصق بسقف حلقها من الجفاف، كابوس غريب: تحولُ نهداها لثمرتي تين يابستين، وأذهلها هذا التحول وآلمها، كانت مرتعبة، نظرت إلى صورتها في المرآة لترى تينتين يابستين بدل نهديها، وسقطت

www.akhawia.net

الثمرتان أمامها على الأرض، فأفاقت مرتعبة، ولم تستطع البقاء في السرير، وقد عرفت أنها لن تستطيع معاودة النوم وأعصابها ترتجف من هذا الحلم، رمت الغطاء جانباً وخرجت إلى الصالون، اتجهت إلى المطبخ لتعدّ القهوة، أعدتّ قهوتها وكأنها منومة مغناطيسياً. وسكبت القهوة في فنجانها المفضل - المقطوع الأذن - وعادت لتجلس في الصالون بوضعية جامدة ساكنة هي الوضعية المثالية لتيقظ أفكارها، واستعادت تفاصيل منامها على مهل محاولة التحرر من تأثيره، غريبة هي المنامات؟ ترى ماذا يعني أن يتحول نهداها لثمرتي تين يابستين؟ واستعادت صورة وجهها المرتعب في الحلم والمتشنج من الألم، وعينيها الذاهلتين، وفجأة انقشعت الغيمة وجاء حل اللغز، إن هذا المنام شديد الوضوح، إنه رغبتها العميقة بالحرية ومخاوفها من التجربة، ضحكت وهي تتناول فنجان القهوة المقطوع الأذن، وتذكرت خالتها تقول لها: هناك عشرات الفناجين، فلِمَ تختارين دوماً هذا المعطوب؟ لكنها لم تكن راغبة باللهو الفكري، كانت نظرتها تتوه في الضباب الصباحي، وهدوء الفجر انتقل لروحها المضطربة، كانت نفسها بحيرة ساكنة لكنها آسنة، وفجأة قفز سؤال مذعور إلى داخلها يسألها: إلى أين؟ إلى أين؟ وهي لم تُحِر جواباً.

تنبهت لحركة خلفها، التفتت لترى خالتها التي سألتها بدهشة:

خلود، ما بكِ مستيقظة مبكرة اليوم؟

قالت: لا أعرف، لقد نمت باكراً.

تأملت خالتها بحنان، وودت لو تبوح لها بما حدث معها البارحة، ودت لو تكشف لها الستار عن وجهها الحقيقي المتشرّب

بالحقد، ولكن أية بطولة يحتاجها الإنسان ليكشف وجهه الحقيقي؟ ارتسمت صورة شادية أمام ناظريها نقية كالفجر، وتساءلت ما الفرق بيني وبين شادية؟ حرّكت يدها أمام عينيها كأنها تطرد صورة صديقتها آه فروق هائلة بيني وبين شادية، قالت ذلك وهي تستعيد على مهل: صفات شادية، إنها صادقة، حقيقية، ليست حاقدة، وأحست بدهشة كبيرة تُرى لماذا لا تحقد شادية على الرجال؟ وكيف تحب وتهب نفسها لشاب بهذه الجرأة والإيمان؟ لكن شادية تهبُ جسدها عن قناعة وحب، أما هي، وسألت نفسها: أنت ماذا فعلت؟ وهبّ صوت الحقد قوياً يدافع عن كيانه يقول لها: تصرفي كرجَل، الهي واعبثي ثم تزوجي، إنه لا يتميّز عنك بشيء أبداً وقالت مؤمنة بكل كلمة: لا، لن أقدّم عذريتي وطهارتي لرجل سيتباهى ليلة عرسي بعشيقاته وغزواته، سأبتسم وقتها بسري وأول باستهزاء، أنا لا أقلّ عنك تجربة، لكن للأسف ستكون جملة خرساء، لأني لن أتمكن من رفع صوتي وقولها.

وتساءلت بجدية: ترى متى سيأتي الزمن الذي سيكون باستطاعة فتاة شرقية أن تحكي عن تجاربها أمام زوجها أو خطيبها أو أخيها، وضحكت كأنها تحسّ أن هذا الزمن لن يأتي.

أخذت نفساً عميقاً وهي تحاول أن تحدّد ماتريده تماماً سأخوض تجربة الجسد، لن أضع حواجز وعراقيل، سأكسر القيود، وسأتحداهم حماة الشرف العاهرين، ثم سأتزوج زواج مصلحة، كان الاسترخاء قد بدأ يدب في أوصالها، قامت إلى غرفتها، واندست في فراشها الوثير، واستسلمت للنوم غير آبهة لزقزقة العصافير التي كانت تناديها بعذوبة كي تعيد النظر بقراراتها الانتقامية.

* * * *

www.akhawia.net

هذه هي الحرية كما تفهمها، مخالفة البيئة، التمرد عليها، والتصرّف عكس ما تطلبه منها هذه البيئة، أفاقت متأخرة عن موعد المحاضرة الأولى، نظرت في ساعتها، وفجأة انتابها ذعر ملكَ حواسها، فقد تداعى لذهنها كيف كانت تنظر في ساعتها وهي عارية في أحضان عقيل عصر البارحة، وكادت صيحة فزع تخرج من فمها: أحقاً خضتُ تجربة الجسد؟! هل ما حدث البارحة حقيقة؟ لعله كابوس؟ إنما لا يُعقل أن يكون حقيقة، لكن خفقان قلبها الأشبه بالارتجاف والصور المتلاحقة التي حاصرتها جعلتها غير قادرة على الفرار، وأكدت لها ذكرياتها الطازجة أن ما حدث واقع لا يمكن محوه، واستعادت بفزع وقسوة مشاهد البارحة، بدا تصرفها مشيناً وهائلاً في تهوره، وأخذت توبّخ نفسها: عجباً، كيف جسرتُ، كيف استطعتُ، وتحولت الصور لسياط ترعبها، وأتاها صوت من مكان ما في داخلها، صوت يعذبها ويعنفها: أعاينتِ الرجل أخيراً هل خبرته؟ مبروك. قفزت من سريرها هاربة من نفسها وصور البارحة تطاردها، وقامت لتغسل وتفرك جسدها بقسوة بالليفة كأنها ستنزع عن جلدها زنخ تجربة البارحة، كانت دموعها تتساقط مع الماء الفاتر، وتساءلت كيف استطاعت أن تغفو؟ ولماذا جاء رعبها وندمها متأخرين ساعات؟!!.

لم تستطع الذهاب إلى الجامعة، لأن مشاعر العقاب كانت من القسوة أن سمّرتها في مقعدها الهزاز في غرفتها ساعتين، بدتا لها دهراً من العذاب، وحيثما نظرت إلى الستائر، إلى سريرها، إلى كتبها، إلى يديها، كانت صورها عارية مع عقيل ترتسم بوضوح

أمامها أخذت تشد شعرها وتقول يا إلهي، يا إلهي، وظل حلقها جافاً رغم أنها شربت كوبين من الماء، كانت وحدها في المنزل، أين أمها الحنون الثانية؟ أين خالتها؟ إنها تريد أن ترجع طفلة صغيرة تبكي في حضنها وتلوذ بفراشها، كما لاذت به ثلاثة أشهر يوم كانت أمها في مستشفى الأمراض العصبية، وحين انعطف تفكيرها إلى المستشفى، أحست سياط عذابها تخف، وخف اهتزاز الكرسي الهزاز. هدأت العاصفة، وعاد حقدها يتسلم زمام الأمور، خاطبها حقدها مؤنباً: ألم تنهر أمك بسبب رجل، وخالتك ألم تزهد في الدنيا بسبب الرجل، ومئات القصص، وأنتِ ماذا فعلتِ؟ أي جرم ارتكبتِ؟ أما زلت عذراء، هذا ما يهمهم الشكل، وشادية، وغيرها كثيرات من الفتيات، كلهن خضن تجارب جنسية، بل أنتِ تتفوقين عليهن بالذكاء، أنت لا تَدَعين أحداً يشك بك، تعيشين حريتك في القاع، في القبو، وتحافظين لهم على ما يرغبون، العذرية والتستر، أليس هذا ما يريدونه المظاهر، والسترة، وحين سيختلي بك زوج المستقبل لن يعرف شيئاً عن ماضيك، هذا ما يهمه، ستتقنين دور الشريفة المغفّلة، وستكسبين خبرات تفيدك فيما لو كان زوجك من نوع زوج خالتك، ولماذا تعذبين نفسك هكذا؟ وشبابك ونضارتك، وجمالك، أليس لها حقوق عليك؟ والحياة قصيرة، ولا أحد يعرف متى يغادر هذه الدنيا وتذكرت كيف يصفون التي تموت من دون أن تتزوج أنها «لم تدخل الدنيا بعد» أتعرفين ما هي الدنيا، إنها الجنس، ما دامت الدنيا هي الجنس، والجنس هو الدنيا، فلماذا

www.akhawia.net

يحرمون المسكينات من دخوله، إلا بإذنهم ووساطتهم، وبالوقت الذي يحددونه هم، ألم تقرئي كتباً عن العصاب والكبت، هل أعيد عليك كل ما قرأته يا خلود، هيا يا عزيزتي قومي وتنشطي البسي، وتباهي بأنوثتك، وإياك أن تنهزمي، لقد جاد الدهر عليك بعقيل، فاستخدميه جيداً، اكتشفي الأسرار المحرّمة بواسطته، وإياك أن يؤنبك ضميرك بعد الآن، لا تدعيهم ينجحون في تكبيلك بالخوف المدمّر، قاومي، قاومي.

قامت عن كرسيها الهزاز، وهي تستجيب لصوت حقدها وتقول معك حق، سأقاوم، دبت فيها حيوية. حتى أنها أخذت تغني حين انتهت من إكمال زينتها، وحين وصلت إلى الجامعة، كانت المحاضرة الثالثة قد بدأت لتوها، أمكنها أن تركز وتفهم كل كلمة يقولها الأستاذ، هذه المرة لم يكن ذهنها مشتتاً يهيم في متاهات الجنس، يتساءل كيف هي؟ وكيف ستكون الأحاسيس والمشاعر التي يولدها احتكاك الأجساد؟ وأية أعجوبة هي الجنس؟

وفي مقعدها الأثير الأخير، نظرت من علٍ إلى الطلاب، يديرون لها ظهورهم، وتساءلت ما نسبة الذين يخوضون تجارب جنسية، وضحكت بدت لها الحياة مهزلة حقاً، حياة في العلن وحياة في الخفاء، وبدت الصور مضحكة، الناس يسيرون في الشارع، يعملون يأكلون، يشربون ينافقون، يدّعون المُثل والشرف والأخلاق، كذب في كذب، ثم يغورون في الأقبية، يتعرون نفسياً وجسدياً ويعيشون غريزتهم البهيمية، وأخذ خيالها يصوّر لها تحت كل بناية ضخمة قبواً، محفوراً في جوفها، تحت

سطح الأرض، وفي القبو تعيش الحريات، ولكن لِمَ لا تعيش على السطح؟ آه إلى متى سيظل ذهني يطرح آلاف الأسئلة المنهكة؟ وتساءلت ترى هل يفكر الشباب مثلي، ولماذا خلقني اللّه هكذا دائمة القلق، وسرح نظرها في باحة الجامعة الواسعة، وأقرّت باستسلام ودون أن تفكر طويلاً أنها ليست سعيدة، ولم تعرف يوماً كيف تكون السعادة، وقفزت شادية إلى ذهنها وأقرت أن شادية سعيدة، ويقولون السعادة تنبع من الداخل ما معنى هذا الكلام، آه أين؟ لا أصدّقه.

كان حزيران في نهايته والامتحان على الأبواب، كانت تقضي يومها في الدراسة، وتلتقي عقيلاً ثلاث مرات في الأسبوع بعد الظهر في قبوه، وما عادت متمسكة بحرصها الشديد صارت تدخل غرفته رأساً وهي تعلم أن الغرفة المجاورة تضم عاشقين أو مخادعين أو لصين هاربين من الزمن.

وتآلفت مع الفرشة الحقيرة، وكانت تترك لأحاسيسها حرية الاكتشاف والإشباع، وتحولت علاقتها معه إلى روتين أو حاجة أو عادة، في البدء كانت متخوفة أن تؤثر علاقتها على دراستها، لكنها اكتشفت العكس، إذ صارت تدرس بتركيز أكبر، ودون تشتت ذهني، ثم تنطلق إلى قبو العباسيين ترفه عن مشاعرها المختنقة المتوترة بالدراسة، وقدمت امتحانها بشكل ممتاز، وحققت تفوقها المعتاد، وانتقلت إلى السنة الأخيرة في الأدب الانكليزي.

أما عقيل فكان يعيش وهم الحب الكبير، يذهب كل صباح إلى المستشفى يتدرب، ثم يعود ظهراً يطبخ الأكل الذي تحبه خلود، كان يُحب أن يطعمها بيده، ويجلسها بحضنه، ويداعبها كصغيرته

www.akhawia.net

المدللة، وكانت تتأثر أحياناً وتبكي، ذلك أن شعوراً ناحلاً في أعماقها كان ينجو من أحماض الحقد المركزة، ويجعله يشفق على العاشق المتيم، كانت تبكي لأن بقايا ضمير يؤنبها على خداعها وغشها، وقذارة اللعبة التي تخوضها معه، وذات يوم كانت تفتش في كتبه عن رواية لجيمس جويس، فوجدت كتلة من المحارم الورقية المجعّدة والجافة، سألته: ما هذه؟

اقترب منها بحنان وهو يداعب شعرها الذي يعشقه: هذه المناديل مسحتُ بها دموعك، فكيف أرميها؟

رقّ قلبها وتساءلت عجباً كيف يحبني بهذه الطريقة؟ بل كيف يكون الحب؟.

* * *

ما كانت قادرة أن تحب، ولا تفهم حالة الحب، فالحب والحقد عدوان لا يقبلان أن يتزاملا، ولا يعترف أي منهما بحق الآخر في الوجود، إما حقد مدمّر، وإما حب كبير، حتى الهدنة غير واردة بينهما، على أحدهما أن يخلي الساحة للاخر، وفي مسيرة حياتها كانت كفة الحقد هي الراجحة دوماً ولكن بين وقت وآخر كان شعور حب رقيق يجرؤ على عبور مستنقع السموم، معتبراً نفسه فدائياً، عساه يضيء ولو للحظات ذلك الكهف المظلم الذي تعشش فيه الوطاويط، والذي سكتت فيه كل الزقزقات الفرحة، واختنقت في داخله كل الفراشات الملونة.

أعطاها شهر الامتحان اتزاناً ظاهرياً، إذ تحدّد هدفها في الدراسة، وفي إشباع شهوة الجسد، كانت تدرس من الصباح الباكر وحتى الرابعة بعد الظهر، لتنطلق بعدها إلى قبو العباسيين، أو إلى بيت إحدى صديقاتها- كما كانت تقول لأهلها - وتمارس في القبو لعبة الحب مع عقيل، مكتشفة كل مرة منعكساً جديداً من منعكسات الرغبة، إنما لم تشعر أبداً بدفء الوصال، وبالوحدة المميزة التي يشعر فيها الاثنان أنهما واحد، وتعود مساءً إلى البيت لتجلس كالابنة البارة وسط أبيها وأمها وخالتها. وفي أحايين كثيرة كانت بسمة سخرية تعبر وجهها كسحابة، هازئة من هدوء أهلها، وثقتهم اللامحدودة بها، تُرى ماذا لو عرفوا حياتها في القبو؟ كيف ستكون ردة فعلهم؟ وهل ستكون صدمة مدمّرة لدرجة تصاب أمها بانهيار عصبي وأبوها بسكتة قلبية؟ كانت سعيدة أنها خبيثة وماكرة ومنافقة، كأن هذه هي علامات النجاح وصفات التأقلم مع المجتمع، وصفات الإنسان الذي يتحدى هذا المجتمع، هكذا لن تُصاب بالعصاب والقلق والأرق، لأنها ليست متغربة عن الناس، بل تعيش كمعظمهم.

لكن ما إن انتهى الامتحان، وابتدأ فراغ الصيف. وسافرت شادية إلى بيت أختها في بانياس، أختها الوحيدة التي لم تخاصمها لعلاقتها بفهمي، بل كانت هي وزوجها يساعدانهما، وانفضّت الشلة، لم يبقَ إلا عقيل، لأنه أصبح في السنة الأخيرة في دراسة الطب وهي سنة التدريب في المستشفى، وأحست أن القبو فارغ، وعقيل وفراغ الصيف يصدمانها، ويضعانها في مواجهة قاسية مع حقيقة وواقع تعيشهما، لقد كفّ دوام الجامعة أن

www.akhawia.net

يكون مخدراً لوعيها، وجعلها لهيب آب تتحول لنمرة شرسة، وأخذت تحسبُ عدد المرات التي استسلمت فيها لعقيل، وجهها يتصلب بحقدٍ أسود، كانت تخاطب نفسها محتدة: الكلب استمتع بجسدي مراراً. وبدأت تكرهه كأنه اغتصبها أو أجبرها على علاقة لم تسعَ إليها بإرادتها، وتخطط لتعيشها، وشمل حقدها كل من يمت إليه بصلة، حتى شادية وفهمي صارت تكرههما وتحتقرهما في حبهما البائس، وخطرَ لها مراراً أن تبتر علاقتها بعقيل، لكنها لم تجرؤ، كانت مضعضعة، خائفة تحس أن ثمة هاوية ستفغر فاها لتتلقفها، يبدو أن قطع علاقتها معه، ليست بهذه البساطة التي تتخيلها، فأحياناً كانت تنقطع عنه أياماً، دون سبب، وتتركه يتعذب في جحيم قلقه وشوقه، ويفسر انقطاعها عنه أنه يقظة لشعورها بالذنب في علاقتها معه، هذه العقدة التي تستيقظ كل مرة لترهقها بعذاب قاس، ماكان له أبداً أن يفكر أن هذا الكيان الذي يعبده هو مستودع لأحقاد قديمة ومتوارثة، لكنها كانت ترجع بعد أيام من انقطاعها عنه، لا تعرف تماماً ما الذي يعيدها إلى القبو إلى أحضان عقيل، لقد اعتادت على عبث الجسد، وتحلله من القيود، كانت تقول: فرصة أمامي، لماذا لا أستغلها حتى آخر لحظة، رجل ألهو به وقتما أشاء، لكن هذا التحليل لم يكن مقنعاً تماماً، ذلك أن بذور سادية كانت تتفتّح في أعماقها تجعلها متلذذة بإذلاله، تقرّبه وتبعده وقت تشاء، فليتعذب الرجال بسببها، أليس عقيل ممثلاً عن الرجال؟!.

لم يكن يحتمل فكرة تخليها عنه، كان مريضاً بها، لذلك كان يغفرُ لها كل نزواتها وأزماتها التي تنبذه فيها، وتعامله باحتقار،

آه، دعيني ظلاً لكلبك، أليست هذه أغنية لا تتركني لجاك بريل وأحست مدى تعلقه بها، لذلك صارت تعامله بقسوة مدمرة، فلو تصرف تصرفاً عفوياً جرحها عن غير قصد، كانت تنتفض وتهب لمغادرة القبو، وكان يرجوها ويتوسل إليها أن تعذره وتسامحه، وأنه لم يكن يقصد إزعاجها، لكنها كانت تتركه وهي سعيدة لأنها تذله وتعاقبه، وكان طيف أمها وخالتها يمران بخيالها فتبتسم لهما كأنها تقول: لقد انتصرت، وأخذت بثأركما، لكنها في لحظات قليلة كانت تحن وتشفق عليه، إلا أن طغيان حقدها ما كان يسمح لهذه المشاعر أن تكبر، بل كانت تختنق في مهدها.

يجب أن تعترف بصدق، أن أداء اللعبة صار أفضل، وأنها تمكنت من الاستمتاع حتى نهاية اللذة معه وأن تظل عذراء محافظة كانت سعيدة أنها مُشتهاة لهذه الدرجة، وأنها تَعبر في متاهات الجنس دون أوراق رسمية، ودون جواز سفر، لكنها كانت تحس دوماً أنها تمنّ عليه بجسدها، وأنه مدين لها بمتعته، ذلك ان تفكيرها ما كان قادراً على السير إلا باتجاه واحد، إنه رجل له مطلق الصلاحيات، أما هي ففتاة مكبلة خاضعة لقيم ذكورية، من هذه الحقيقة كانت تنطلق، وإليها تنتهي، وكل أفكارها تنوس ضمن هذا المجال، وحين كان يحدثها عن رغبته بالزواج ما إن ينهي السنة السادسة ويحصل على شهادة الطب كانت تسخر من أعماقها، وتقول: عمَّ يتحدث هذا الأبله؟ أي زواج يتحدث عنه؟ والجندية تنتظره، وسنوات الاختصاص، وبعدها قد لا يتمكن من اقتناء عيادة، وسأكافح سنوات معه، لا، لم أتعلم أن أفكر هكذا، يجب أن أحب نفسي، زواج المصلحة الذي يحقق كل تطلعاتي.

www.akhawia.net

ولكن ماذا لو هبطت ثروة مفاجئة على عقيل، أتقبل به زوجاً؟ سؤال خبيث لا تعرف كيف غزا تفكيرها، واحتارت كيف تجيب لكن سلطان حقدها رفضه زوجاً ولو كان ثرياً، لأنها لن تكون أبداً لرجل وحيد، لكأن الخيانة مبدأ أساسي في حياتها، أو كانت تقول كاحتمال جواب لهذا السؤال الطارىء: أقبل به ثم أخونه، إنما لن أكون لرجل واحد إطلاقاً. . .

* * *

اقترح عليها والدها أن تتسجّل في معهد غوته لتعلم اللغة الألمانية، لاقى اقتراحه صدىً إيجابياً في نفسها، وفي معهد اللغة التقته، أستاذ اللغة الألمانية الشاب، الذي يخدم جنديته في دمشق، يدرّس اللغة الألمانية في معهد غوته، كان اسمه هوليداي، ومن النظرة الأولى أعجبت به، ليس لجماله الواضح، بل لشخصيته المحببة وخفة ظله، وعلاقاته الحضارية المميزة مع الطلاب، كان لكل طالب مقصورة زجاجية وسماعات أذن، ومسجلة، وكل منهم متصل مع الأستاذ، يتلقى الدرس، ويسأل عن طريق المسجلة وأمكنهما عن طريق المسجلة أن يتعارفا، وأن يتواعدا، لقد نقلت له بسهولة، عبر عينيها الفاتنتين إعجابها وميلها إليه، ولاقت صدىً فورياً عنده، وأحست بإغواء التجربة الجديدة حاداً وقوياً وكونه أجنبياً عنصر جديد يُضاف لإغراء التجربة، ولم يحتاجا لزمن ضروري للف والدوران، لأن هوليداي مباشر وواضح، لقد دعاها إلى الاستديو الذي يسكن في أبو رمانة،

شارع السفارات والفيلات، وقبلت الدعوة مغتبطة، حدثت نفسها: هوليداي ألماني، لا يعرف أحداً من معارفي، وسيسافر إلى ألمانيا بعد انتهائه من خدمة الجندية، فلِمَ لا أغامر معه، وهل أجمل من الحياة على حافة الخطر؟ ألا يبحث الرجل عن متع عابرة؟ وهل يُفوّتُ فرصة؟.

تمّت الأمور بسهولة بالغة لم تتوقعها، وحين زارته للمرة الأولى، فتح الباب وهو شبه عارٍ بالمايوه الأسود، ولم يتحادثا أكثر من دقائق، ليرتميا معاً على فراش الرغبة التي لم يحاول أي منهما تأجيلها أو تزييفها، رغبة عارية صريحة، لا تخاف فلتعلن عن نفسها رأساً، وحين رجته أن يحترم عذريتها، ضحك وهو يقول: أعرف، فأنت شرقية. . . ولكن هذا السلوك حرام.

سألت مستغربة: حرام.

قال: نعم، فالعلاقات الناقصة تورث عللاً نفسية.

سألت بعبث: مثل ماذا؟

قال: أوه إن ذلك يحتاج لرأي طبيب نفسي.

كانا يتحدثان بالإنكليزية، أخذت تقارن بين عقيل وهوليداي، المتعة التي أحستها مع هوليداي أكبر وأعمق، وتنبهت أنها تحولت لفتاة مورافيا في روايته السأم، فها هي تقيم علاقة مع رجلين، ألا يُعقل أن يكون لهذه الرواية تأثير مدمر في نفسها، وعادت تتذكر ما قرأته ذات يوم، أننا يمكن أن نتأثر بشدة بشخصية قرأنا عنها أو شاهدناها على شاشة السينما، وبلغ استهتارها أنها كانت تلتقي هوليداي وعقيل بيوم واحد، أحياناً كثيرة، لكن نوباً من الكآبة

www.akhawia.net

الحادة كانت تنتابها أياماً متتالية، وتتركها تسجن نفسها في غرفتها وحيدة، مهملة هندامها ونظافتها، وما كانت تخرج إلا بمساعدة خالتها وأمها، وأبيها الذين يعتقدون أنها مفرطة الحساسية، وتفكر بالدنيا بطريقة تجلب الهموم والمتاعب.

لاحظت أنها صارت أكثر إنسانية مع عقيل بعد أن خاضت علاقة مع هوليداي، يبدو أن الإنسان يصير ألطف وأرق مع الناس الذين يخدعهم، ومع الوقت صارت تفضّل هوليداي على عقيل، ربما لأن هوليداي لم يقل لها أبداً - أحبك - كان صريحاً وواضحاً، فما يجمعهما المتعة، مجرد المتعة، معه كانت حرة ليست مضطرة أن تتظاهر أنها تحبه وتبغي الزواج منه كي تبرر متعتها وكي تنفّس أحقادها، أما عقيل فعليها أن تمثل أنها تحبه لكي تصل إلى ما تريده. لعل هوليداي هزم أنوثتها واعتدادها بنفسها لأنه لم يحبها، كان يقول لها أفتقدك، واشتقت إليك، وأرغبك. أما أحبك فلم يحسّها أبداً، ولم يقلها، أخذ هوليداي يتملكها بأسلوبه الأوروبي المتمرس في العلاقات الجنسية، حتى طلبت منه ذات مرة أن تكون ممارستهما كاملة، وسألها مندهشاً: أتطوحين بعذريتك، ألم تقولي أنها أثمن ما تملكين؟.

قالت: لم أعد أحتمل هذه العلاقة المبتورة.

تردد وهو يقول: لكني لا أريد أن أؤذيك.

قالت: لن تؤذيني، هناك آلاف الحيل لحل هذه المشكلة.

منحت هوليداي عذريتها، وكان طيف عقيل يلوح لها بين حين وآخر فلا ينتابها أي إحساس بتأنيب الضمير أو الخجل كونها

تخدعه، وهيمن هوليداي على مشاعرها، أهو الحب؟ صارت تتمنى لو يقول لها أحبك، وصارت تكتئب حين تفتكر أنه سيغادر ذات يوم إلى غير رجعة.

لقد طلبت إليه أن يحدثها عن حياته، كم مرة أحب، وأخبرها أن المرأة الوحيدة التي أحبها كانت عازفة بيانو تكبره بست سنوات، وأنها رفضت أن تتزوجه بعد علاقة دامت أربعة سنوات، وحين علّقت أنها تكبره فكيف يحبها، ضحك وهو يقول: أنتم في الشرق تهتمون بالسن.

حكى لها عن حب آخر عاشه في بلد عربي متزمت، كانت فتاته تأتي إليه سراً متنكرة، وهما يعلمان أن نهاية علاقتهما يعني الموت لكليهما، ولكنه اكتشف أن اللذة تكون بحجم الخطر وأنه في كل مرة كان يلقاها كان يشعر أنه يواجه الموت.

وفي الوقت الذي تناقش نفسها، أن تترك عقيل وتبقى مع هوليداي، في الوقت الذي كان الحب يلامس شغاف قلبها، وتحاول استمالة هوليداي، واغراقه بالعاطفة، العاطفة كلمة جديدة تكتشفها، لم تعرفها من قبل، في هذا الوقت الذي يمكن أن يكون بداية لعهد جديد، سافر هوليداي فجأة إلى ألمانيا دون أن يترك لها كلمة وداع، أو يحاول الاتصال بها.

بكت بمرارة بكاء الهزيمة أكثر مما هو بكاء الحب، لقد هزمها، حطم بكارتها وتركها، لكنها استسلمت له بإرادتها، وعصرها الندم، كيف استسلمت له؟ زادها ندمها حقداً وقهراً إلى من ستلجأ؟! وهل هناك غير عقيل الاحتياطي دوماً، العاشق أبداً،

www.akhawia.net

لجأت إليه تبكي هزيمتها وهي تختلق أسباباً وأسباب لتبرر دموعها، وفرح بعودتها بعد أن كاد يختنق من القهر والألم لابتعادها عنه دون سبب، ولم يخطر على باله إطلاقاً أنها كانت تعيش علاقة عشق عنيفة مع شاب ألماني في الوقت الذي يكتب لها أرق الرسائل ليحررها من عقدة الذنب التي تعانيها بعلاقتها معه، وهي ابنة الأسرة التقليدية التي ربّيت على طريقة معينة. كان يحضّر لها كل يوم الأكلات المغذية التي يجب أن تأكلها، ويغلي الشراشف، ويعطرها، ويكويها ويمدّها فوق فرشته، وينتظر عودتها بحب كبير، وبطاقة غريبة على الغفران، كان حنوناً لدرجة كادت تنسى أنه العشيق المخدوع، وكادت تعترف له بعلاقتها بهوليداي، لقد طعنها هوليداي طعنة غادرة، تسلّى واستمتع وأدار ظهره وسافر، لكنه لم يعدها بشيء، فكيف تلومه؟ لم يغشها كما غشت عقيل لأشهر. وكانت تتخيل هوليداي يحكي عنها لرفاقه، ويقول تصوروا طلبت مني أن أفض بكارتها.. وتعلو ضحكات رفاقه التي يعجز خيالها عن إسكاتها.

* * *

إستكانت في أحضان عقيل يائسة، وعاد إليه تفاؤله وسروره بعودتها إليه، لكن لطفها لم يستمر، إذ عادت لتنتقم من هوليداي ومن الرجال بشخصه، ووجدت أن أسلوب البرود واللامبالاة هي أكثر الأساليب تعذيباً، ما كانت تشعره أنها تشتاق إليه أبداً، وكفّت عن مناداته حبيبي، كأنها تنتقم من هوليداي الذي لم يقل

لها يوماً حبيبتي، وحين كانت تستسلم له بدافع الملل واليأس والعادة فوق فرشته الحقيرة، كانت تهزأ منه بسرها أنه لا يزال يحترم عذرية وهمية لا وجود لها، كان عقيل يتعذب، ويشعر أن نهايات أعصابه تنتهي بنار كاوية، وأهمل دراسته، وانعزل عن رفاقه، وخاصم أعز أصدقائه فهمي الذي حاول جاهداً إقحام نفسه في مشاكل عقيل النفسية، ما كان يسمح لأحد أن يتقرب منه وأن يراه في ضعفه، وحين ابتدأت السنة الجامعية الجديدة. ولاح الخريف كئيباً منهزماً، لاحظت شادية التغير الكبير الذي طرأ على عقيل وحاولت ألا تتدخل كما أوصاها فهمي، وأملتْ أن تحدثها خلود عن مشاكلهما، لكن خلود لزمت الصمت ولم تقل شيئاً، حتى اضطرت شادية أن تسألها: ما الذي يجري بينكما يا خلود، لقد تغيرتما؟

فترد خلود لامبالية: لا شيء...

-لكن وضعكما ليس طبيعياً، وحزنٌ كبير يسيطر على عقيل.

فتقول لا شيء، أرجوك يا شادية لا تتدخلي.

كانت تزداد شراسة كلما ازداد عقيل صبراً ووجداً، وصارت تتعمد تحقيره، فلو اختلفا حول الساعة التي سيلتقيان فيها مثلاً، تتعمد أن تنفعل وتغضب وتقول له:

- ماذا؟ ستفرض علي رأيك، يا زعيم شلة المهووسين؟

فيقول منذهلاً: المهووسين؟

وترد بشراسة: أجل شلة مدعي الثقافة، يا من تأكلون متحلقين حول طبق، فوق أوراق الجرائد، وتدّعون الثقافة والفهم فقط لتحصلوا على فتاة.

www.alkhawia.net

كان عقيل يتقبل انغراس السكاكين في قلبه بصمت، ويسأل منكسراً:

- هل هذا رأيك الفعلي يا خلود بنا؟.

- أجل هذا رأيي الفعلي.

- لكنك كنت تقولين بأنك تحبين أصدقائي وتحترمينهم، بل وتعتبرينهم الطليعة والنخبة.

وتتابع بالشراسة نفسها: كنتُ مخطئة.

فيقول وحبه يهزمه دوماً: لماذا اخترتني إذاً؟ ولماذا قبلت أن تقيمي علاقة معي؟ وأنا زعيم شلة المهووسين مدّعي الثقافة.

فتجيب: لأني غبية حمقاء.

فيتمنى لو يقول لها وينتصر مرة واحدة لكرامته: اتركيني إذاً. لكنه يصمت، كانت تذله بساديتها، ويبدو أنه كان من الضعف والحب والألم أنه لم يقدر أبداً على خسرانها مهما عذّبته.

لقد كشفت له الأيام القادمة أنها كانت مغرمة فعلاً بهوليداي. اشتاقت ليديه، وبشرته، وطعم قبلاته، أحست أنه الرجل الوحيد الذي امتلكها، لأنه ترك بصمات لا تُمحى في روحها، أما عقيل فلم يمسّ أعماقها أبداً، ولم تقلق يوماً بشأنه، ولم تبالِ يوماً بمشاعره إنه الاحتياط أو الوسيلة، لكن عذابها من فقدان هوليداي، ومن إحساسها أنه تركها دون أن يقيم وزناً لمشاعرها، ودون أن يترك عنوانه. جعلها تتنبه لعذاب عقيل، ولأول مرة بعد أن عرفته لمدة أشهر تتساءل: هل يتألم بسببي حقاً؟ ولكن تساؤلها

هذا لم يعن لها شيئاً. إنه لا شيء، حتى أنها كانت تتساءل هل الجنس عادة كالتدخين مثلاً؟ ولماذا تواظب على علاقتها معه وكانت حين تجهد ذهنها تعرف أنه متنفس لسادية أحقادها. وأنه ساحة الانتقام، فكيف ستنسحب، لقد عزلته عن أصدقائه وصار يكثر التدخين، ويسهر حتى الفجر يكتب لها رسائل يبوح لها بعذاباته وألمه من تغيرها، وينام عند الفجر مهملاً دراسته ودوامه في المستشفى، حتى أنها عرفت بالصدفة أنه رسب في امتحان السنة الخامسة، وآثرت شادية الابتعاد وهي تراها بهذه اللامبالاة، وعادت للشلة التافهة التي كانت تصادقها قبل أن توطد علاقتها مع شادية وشلة العباسيين، وعادت تتحدث عن آخر صيحات الموضة، وأخبار الممثلين، والفضائح الاجتماعية والزواجات، والطلاقات.

كانت تداهم عقيل يبكي مراراً، وكانت تحنق من منظره.

فتصرخ به: ما بك تبكي هكذا؟ ألا يقولون الرجل لا يبكي، ما بكَ يا عقيل؟.

فيجيب منكمشاً في حزنه: لا أعرف، لا شيء، لا تشغلي بالك.

وتتابع بنرفزة: أوه، ما بكَ أحسك كمالك الحزين.

فينظر إليها بحب لا يعرف الهزيمة ويقول: خلود، لماذا تشوهين نفسك؟

لماذا تعامليني بهذه الطريقة كأنك تكرهينني أو تكرهين نفسك فتقول له فاقدة الصبر من رقته: أرجوك يا عقيل، لا تتحدث

www.akhawia.net

هكذا، إقبل بي كما أنا - ليس بإمكاني أن أكون سعيدة، لا أعرف لماذا وإن لم أعجبك اتركني.

فيغمر يديها بدموعه ويقول: أتركك، هل أنت مجنونة؟ أنا أعبدك.

تتمنى لو يكون هوليداي مكانه، فتبكي من خيانة هوليداي القاسية لها، تركها دون كلمة وداع، فيضمها عقيل مفسّراً دموعها أنها دموع قهر وألم تعانيهما في تناقضات سلوكها وتربيتها، كيف له أن يعلم أنها تبكي الألماني الذي تركها فجأة.

أخذت تحاول اللطف مع عقيل، صارت تشفق عليه وتعامله بود، وتحس مدى سعادته برقتها، وأخذت تطلب إليه كما لو كان طفلاً صغيراً أن يهتم بدروسه وأن ينام جيداً. ووعدها أن يكون عند حسن ظنها فيما لو غادرها طبعها المتقلب، لكن كآبتها استمرت في الازدياد، كذلك سوداويتها، ولم تعد تحتمل تمثيل اللطف عليه، وأخذت تبحث عن وسط جديد تهرب إليه وتذكرت حالتها قبل التعرف بعقيل كيف كانت فاقدة الصبر تنشد التغيير. لقد عاودها هذا الشعور مُجدداً. فهي لم تعد قادرة على متابعة حياتها مع عقيل، وفي القبو، وبرفقة شلة العباسيين، الذين كانت تلتقيهم مراراً، في الجامعة، أو عند عقيل، أو في أماكن تجمع المثقفين، المعارض، المراكز الثقافية، ودور السينما آه، ما أصعب أن يلح عليك شعور بوجوب التغيير، وأنت لا تجد مواد جديدة لهذا التغيير.

* * *

مع بداية الشتاء بعواصفه القاسية، كان ثمة تغيير كبير ينتظرها فقد تقدّم هاني لخطبتها بعد أن عاد نهائياً من أميركا، كما حدست خالتها ذات يوم وقالت لها: هل ستجد أم هاني زوجة أفضل منك لابنها وريث الملايين، وضحكت وهي تتذكر حياتها الخفية التي لن يعلم منها هاني ولا أمه ولا أبوه، ولا أحد، شيئاً.

وتحدّد موعد الخطبة بعد أن التقت هاني مرتين، مرة في بيتها، ومرة عند أهله، وحدثها منطق حقدها أنه الزوج المناسب رجل الأعمال الأنيق الذكي، الذي يتقن الانكليزية. ويفتح باب السيارة لزوجته، ولا يمانع أن تتابع دراستها في الدكتوراه، وأن تعمل عملاً أنيقاً لساعات قليلة، الزوج المناسب كثير الأسفار والتنقلات، والذي تسمح طبيعة حياته أن يغامر مع عشيقات عابرات، وتغامر زوجته مع عشاق عابرين لكن دون أن يتأثر الهيكل الزوجي.

وتمت الخطبة في الشيراتون، وضجت الجامعة لخطبة خلود وهاني، وحسدها الكثيرون وهي تنزل ذات يوم من الشيفرولية التي كان يقودها خطيبها. وانتهت علاقتها بشادية فوراً بعد الخطبة، لأن شادية حوّلت وجهها عنها يوم رأتها، كأنها تتبرأ منها أو تصمها بالخيانة، وحين اقتحم عقيل مقصف الجامعة باحثاً عنها. ودت لو تفر هاربة لأنها لمحت شرارات الغضب المنطلقة من عينيه، لكنه سبقها واقترب منها، وأمسك معصمها يكاد يهرسه وهو يقول تعالي معي.

تبعته وهي تحس أن عظام معصمها تنهرس، خرجا إلى الحديقة خلف الجامعة، قال لها بصوت نازف: مبروك الخطبة.

www.akhawia.net

غضبت وسحبت يدها، وقالت له: اترك يدي، أنت تؤلمني.

قال لها: كنت أعتقد أنهم أجبروك على الخطبة.

ابتسمت ابتسامة صفراوية وقالت: لا، لم يجبروني.

قال وقد تشنج جفناه وبدت عيناه ككرتي زجاج: إذاً أنتِ موافقة.

قالت ببرود: نعم.

وهوت صفعة على خدها جعلت أضراسها تتخلخل، وصرخت ملتاعة: أتضربني يا كلب.

كان وجهه قطعة جمر، وبصق في وجهها، فأتى بصاقه عند زاوية عينها الأنسية، وقال لها: أكنت تلهين معي يا عاهرة؟

قالت: وأنت لهوت، واستمتعت بجسدي..

سقطت دمعة نارية من عينيه، وقال: أنت لم تفهمي كم أحببتك لأنك سافلة.. وتركها إلى الموت..

* * *

إلى الموت تركها - عاد إلى جحره، وتناول كمية كبيرة من الحبوب المهدئة، وشرب نصف ليتر من العرق، واستسلم للنوم الأبدي، هل كان ينوي الموت فعلاً؟ أم كان يريد أن يخدّر ألمه الكبير بأية طريقة؟ وبعد أن عزلته عن رفاقه وشوهت علاقاته مع الآخرين، مع شلة المنافقين المدعين. كما تُسمي أعز أصدقائه، وابتعدوا عنه مرغمين، لأنه صار نزقاً يشتمهم ويجرحهم حين يمدّون له يد المساعدة، وجد نفسه فجأة وحيدا منفياً في جحره،

وتذكر أغنية جاك بريل لا تتركيني، ودعيني ظلاً لكلبك، كانت الكاسيت في المسجلة تدور، حين اكتشف فهمي أن صديقه جثة هامدة، كان قد دخل غرفته يرجوه أن يخفض صوت المسجلة لأنه يريد أن ينام فوجد عقيل بلا حراك على فرشته الوحيدة، فرشة حبه الحقيرة، وقد أغمض عينيه نصف إغماضة، وفغر فاه، ولم يستطع أن يكذب إحساسه أن صديقه قد انتحر.

ربما توفي في الوقت الذي كانت فيه خلود تتناول غداء الخيانة مع خطيبها هاني، تُرى هل افتكرت ذلك المتيم الذي كان يذهب في الصباح الباكر إلى السمّان ليشتري حليب البقر، ويغليه، ثم يضيف إليه السكر والرز، ويصنع الرز بحليب المغذي لحبيبته، ويطعمها بيده بضع لقمات، وهي تتدلل لاتريد أن تأكل.

الثانية بعد منتصف الليل هبت ريح قاسية، كان الشتاء يخضّ الأشجار، ويزمجر ويرعد، معلناً سيادته على الطبيعة، كما أعلن حقدها سيطرته عليها لسنوات وسنوات، ولكن جنون كانون لم يمنع فهمي وشادية من إيقاف سيارة أجرة والتوجه إلى المزة فيلات، وليقرعوا باب القاتلة بإلحاح:

فتحت الخالة مرتعبة، قالت: خير، فهمي، شادية، ما الأمر؟!..

قال فهمي بإقتضاب: نريد أن نحدث خلود بأمر هام.

نظرت الخالة في ساعتها: الآن، بعد منتصف الليل، خير.

تقدمت شادية شاقة طريقها نحو غرفة خلود وقالت: عن إذنك..

www.akhawia.net

وقفت الخالة منذهلة، وظل فهمي مكانه، اتجهت شادية ودخلت غرفة خلود دون أن تطرق الباب، أضاءت النور، تململت خلود، وماكادت تفتح عينيها حتى سمعت صوت شادية تقول: قتلته يامجرمة...

وقبل أن تتسع عينا خلود دهشة وهي ترى شادية أمامها وكأنها تبصر مناماً: قالت: لقد انتحر، بسببك، أنت المجرمة أنت القاتلة...

وصرخت صرخة مدوية، لا، لا.

حين التفتت شادية لتبحث عن فهمي وجدت الأم والأب والخالة يسارعون على صوت خلود، نظروا للزائرين بغضب وقالوا ماذا قلتما لها؟ ماذا فعلتما بها؟ رد فهمي بقسوة، وهو يسحب شادية من يدها: إسألوها.

تنظر خلود في الوجوه حولها أم أولى أم ثانية، أب. آه الدنيا، حمراء، بل زرقاء، بل وردية، دوار، دوار، بل سوداء، سوداء، كانت قد غابت عن الوعي.

* * *

استعادت الوعي في المستشفى، أحست أنها مصابة بإنعدام الوزن، جسدها خفيف خفيف، أول ما رأت الستائر، ستائر بيضاء حريرية، تنسدل على النافذة، ترى ما مهمة الستائر - تساءلت الحَجبْ، حجب الحقيقة، افتحوا الستائر، كانت تعتقد أنها تصرخ وتصرخ، ولكن صوتها نحيل وشفتاها مطبقتان،

الجسد رخوٌ مشلول، والدموع خفيفة ناضبة، الإبرة رفيعة تغرس في ظهر يدها، والسيروم ينقط، نقطة، نقطة، تقترب الممرضة الأنيقة كالشبح، وتزرق دواء في كيس السيروم، قبل أن تستدير لتنصرف، تناديها باذلة جهدها كي يخرج صوتها مسموعاً: لو سمحت؟

تتوقف الممرضة، تقترب منها وتمسح على شعرها، تقول: هل ناديتني؟

تقول: أجل.

تسألها: خير، أتريدين شيئاً، ستنامين الآن ست ساعات على الأقل.

تحس بنعاس شديد، تسألها: هل مات؟.

تكرج دمعة وحيدة تنزلق من زاوية عينها، لتغرق في بحر شعرها الغجري، تغفو وصورة الممرضة تبسم لها، كأنها تقول لها، هيا نامي، نامي، النوم يشبه الموت.

حوصرت شادية وهددت، قال لها السيد فؤاد، الذي تناديه زوجته الثانية فوفو: أستطيع أن أمسح بكِ الأرض يا صعلوكة، أنت ورفيقك سبب انهيار ابنتي.

ردت شادية بشجاعة: احترم نفسك يا سيد، وحكت له حقيقة علاقة ابنته بعقيل، أرغمته على الاصغاء.

قال غاضباً: كذب، كذب، أنتِ كاذبة، حاقدة. الحقد الطبقي كارثة حقاً.

ردت ببرود: لماذا انهارت إذاً؟.

www.akhawia.net

- اخرسي - ابنتي حساسة، وشريفة.

تبتسم شادية ولا تعلّق بكلمة.

يتركون الصعلوكة الفقيرة، طالبة الجامعة، يطوون الحقيقة، ويدفنون خبر الزيارة الليلية، وبعد أيام يبحث السيد فوفو بإلحاح عن شادية، يحاول شراء صمتها، يقول لها، إن ابنته منهارة لكنها مخطوبة، وخطيبها شاب ممتاز ويحبها، ويجب أن تتزوجه، وأنه مستعد أن يقدم لها المساعدة التي ترغبها هي وحبيبها مقابل صمتهما.

ترد شادية بتقزز: ثق أنني لن أتكلم، لأن الكلام لن يحييه من الموت، لن أتكلم ليس احتراماً لطلبك، فأنا احتقرك، واحتقر ابنتك، كلكم منافقون.

يبتلع الإهانة، كما اعتاد أن يبتلع إهانات كثيرة في سبيل الحفاظ على مصالحه.

هل يلوم ابنته على علاقتها مع طالب الطب؟ وكيف كانت حياتها مخفية عنه كل هذا الزمن الطويل؟ ولكن هل يحق له أن يسأل؟ ألم تعرف وهي طفلة صغيرة أن لوالدها حياتين! زوجتين! وأن لأمها وجهين، وما فائدة نبش الجذور والتبحّر في الأسباب ما دامت الغاية شفاء خلود وتزويجها.

قبض الطبيب مبلغاً كبيراً كي يطمس حقيقة انهيار خلود العصبي، ويكتب في تقريره الطبي أنها أصيبت بالتهاب حاد في المعدة. وخلال أيام كانت خلود تطير إلى لندن ليستقبلها أخوها في مدينة الضباب، وليدخلها إلى أفضل مصح للأمراض العصبية.

وقبل سفرها أصابتها نوبة هياج في فيلا المزة فيلات، كانت تصرخ، افتحوا الستائر، لا أحتمل منظر الستائر المطرزة، وهجمت على خالتها تهزها من كتفيها، لقد قضيت عمرك تطرزين لي ستائر بيتي، وشراشف سريري الزوجي، وأغطية الوسائد، وغطاء طاولة الطعام، وتضحك ضحكاً هستيرياً وهي تضع يديها على معدتها، وتغير نغمة صوتها: أوه معك حق يا أمي الثانية يجب تطريز الشراشف التي ينام عليها الزوجان كي يلتفتان لجمال التطريز، ويلتهيا عن مللهما وعدم انسجامهما، يجب تطريز غطاء الوسائد، كي لا يحزر أحد ما يدور برأس الآخر، يجب تطريز غشاء البكارة، يجب تطريز الحقيقة لنشوهها.

أغلق والدها جيداً النوافذ كي لا يصل صراخها للخارج ويسمع الجيران.. كل شيء إلا الفضيحة..

* * *

في مدينة الضباب، كان أخوها بانتظارها، تهاوت بين ذراعيه، أحس أنه ينتشلها، كانت دموعها تفيض وتفيض دون انقطاع، وأجفانها منتفخة دوماً، كانت تتناول عدة أنواع من الأدوية، لكنها تقول الحبوب الصفراء، والحبوب الحمراء، وحبوب الفيتامين البيضاء، لكن جسدها لم يكف لحظة عن الإرتجاف مع أنها كانت تأخذ الأدوية بانتظام، بكى أخوها وهو يراها بهذه الهيئة. قالت له وهي مرتمية على المقعد بجانبه كخرقة

www.akhawia.net

مبللة بالدموع، وعيناها مغمضتان، لا تعيران عاصمة الضباب أية التفاتة: هل تقودني إلى ساحة العباسيين.

كان يقودها وسط الضباب، والثلج يهطل بصمت، ودموعه تسقط بصمت، وصوتها يأتي من بعيد، بعيد جداً رغم أنها قربه:

- هل تعرف قبو العباسيين، إنه حفرة تحت بناية ضخمة ضخمة- كان صوتها ممطوطاً رخواً - يسكنها أناس يشبهون أباك يعاشرون فتيات صغيرات، يشتروهن بالمال، وقد يتزوجوهن لكن تعلم أن أباك عاد إلى أمك لأنه أصيب بالعنانة، وخالتك لم تمتلك خبرة العاهرات في إثارة الرجال، وأنا عشت في القبو! كان لعابها يسيل من جانبي فمها، ودموعها تنهمر بسلاسة، فتترك نفسها غارقة في رطوبتها، وتتابع وهي تهذي، في القبو قتلته، أحبني لكني قتلته، لكني لا أذكر كيف قتلته، ربما بالمسدس، ولكن من أين لي المسدس، أعتقد أنني خنقته بالحبل، لا، لا، لقد قتلته بالسم، فأنا أملك حمضاً مركزاً مزجته مع الرز بحليب وسممته، أوه هل تحب الرز بحليب يا أخي العزيز. أخذت تصرخ بأنين مبحوح: آخ، آخ، كان يحضر لي دوماً الرز بحليب ليغذيني، ويطعمني بيده لقمات صغيرة..

امتدت يد أخيها تناولها محارم ورقية لتمسح دموعها وتتمخط تمسك المحارم الورقية، لكن دموعها تفيض بغزارة أكبر.

تتابع حديثها الأقرب للهذيان، أتدري كان يحتفظ بالمناديل الورقية التي أمسح بها دموعي. هل تتخيّل عشقاً كهذا، لكني أنا

قتلته، آه تذكرت الآن، ساعدني شاب ألماني اسمه هوليداي، هوليداي القذر العاهر، لقد خنته مع هوليداي لقد أردت أن أكون بوجهين، كبقية الناس، كناسنا نحن لأن شادية، وفهمي وعقيل ليسوا مثل الناس الذين نعرفهم إنهم بوجه واحد، أوه، صرتُ بوجهين، بل ربما بمئة وجه، وأحسستُ أني أحقق علامات النجاح في وسطي، وأني أنسجم مع المحيط، وأعيش حياتين، واحدة على السطح وأخرى في القبو.

أخذت تتشاءب، وهي تقول: لقد أحبني حتى الموت، حتى الموت ليتني أموت وألحقه، عساني أغسل دنسي وقذارتي..

أمسك أخوها يدها وقال ستتعافين يا حبيبتي، سيشرف على علاجك أشهر الاختصاصيين النفسيين، وسترجعين خلود الحلوة الرقيقة.

ارتخى حنكها ونامت، كفت عن الكلام، لكن دموعها استمرت بالانسكاب الخافت وهي نائمة، واختلطت أحلامها، رأت نفسها طفلة في الثامنة تفتح باب الحديقة، الفاصل بين غرفتها والصالون وترقص على لحن أغنية لا تتركني لجاك بريل، ثم تتوقف لتأكل الرز بحليب، وتتحول فجأة لشابة ترتمي على الفرشة الحقيرة الوحيدة في قبو العباسيين وتمارس الحب مع عقيل، لا مع هوليداي، ويتناوب وجه عقيل ووجه هوليداي.

تنتفض من نومها وهي تصرخ، لا، لا...

يدثرها أخوها بالمعطف الفرو، ويقدم لها الدواء، حبة حمراء وأخرى صفراء، وحبة الفيتامين البيضاء، تبتلعها مع قليل من الماء

www.akhawia.net

المعدني، وتغمض عينيها، وبين وقت وآخر يتأملها أخوها ويلمح أطياف أحلامها التي تعذبها من حركة أجفانها وارتعاش أهدابها ومن ابتسامات خفيفة ترسمها شفتاها.

لم تعرف كيف وصلت إلى غرفة الطبيب، لكنها حين فتحت عينيها وهي تنظر بإعياء إلى المكان الأنيق حولها، وتتساءل أين أنا، سمعت أخاها يقول: أرجوك يا دكتور يجب أن تبذل كل جهودك كي تتعافى خلود خلال شهرين أو ثلاثة بالكثير، لأن عرسها سوف يكون في أوائل الربيع، ولا نريدها أن تخسر مستقبلاً وزوجاً يصعب أن يُعـوَّضا...

انتهت

١٩٩٤/٤/٢٣

صدر للمؤلفة

مجموعة قصص قصيرة وهي:

* - ورود لن تموت.
* - قصص مهاجرة.
* - خواطر في مقهى رصيف.
* - موت البجعة..
* - يكفي أن يحبك قلب واحد لتعيش.
* - ظل أسود حي.
* - عطر الحب.
* - فضاء كالقفص.

ومن رواياتها:

* - يوميات مطلقة.
* - أفراح صغيرة.. أفراح أخيرة.
* - نسر بجناح وحيد.
* - امرأة من طابقين.
* -أيقونة بلا وجه.
* - أبواب مواربة.
* - امرأة من هذا العصر.

www.akhawia.net